2

الحيلولة دون نزاع بين الدول الكبرى

اجتذاب روسيا والصين من العزلة

شروط معاهدة ڤرساي أفقرت ألمانيا وأذلتها وجعلتها تشعر بالخديعة لأن الألمان كانوا يعتقدون أنهم وافقوا على هدنة قائمة على صيغة ودرو ويلسون «سلام بدون منتصرين». والخيانة التي شعرت بها ألمانيا ساعدت على صعود النازية، وقادت إلى الحرب العالمية الثانية، وأكدت في الواقع أن القرن العشرين سيغرق في الدماء. لقد ظهر شبح ويلسون في القرن الحادي والعشرين بعد أن أضحت روسيا والصين أكثر تشككاً بالولايات المتحدة والغرب لأنهما خدعتاها، لحنثهما بوعدهما (كما يعتقد الروس) وهو الالتزام بعدم توسيع حدود «الناتو» إلى حدود روسيا الغربية، وبالتزامهما (كما يعتقد الصينيون) الامتناع عن تأييد استقلال تايوان. ولقد أخفق الرأي العام في الولايات المتحدة والغرب على نحو خطير في تقدير إمكانية صدام بين الدول الكبرى و/ أو وضع خطط للحيلولة دونه. نطرح هنا مقاربة لفهم لماذا يمكن أن ينشب نزاع بسبب نقص تفهم الأوضاع التي تواجه الروس والصينيين؛ والإخفاق في توقع نزاع غير متعمد يكون نتيجة غير مقصودة لتصرفات تتخذ في قالب متعدد الأطراف مع الوقت، أكثر مما هو تهديد مباشر وآني لمصلحة الولايات المتحدة.

«شبح ويلسون» ـ جذور الحرب العالمية الثانية وخطر حرب عالمية ثالثة

مع بداية القرن الحادي والعشرين قد ينتابنا شبح ويلسون إذا لم نبدأ الآن في سؤال أنفسنا كيف يمكن أن ينشب نزاع بين الدول الكبرى، وما ينبغي فعله

للحيلولة دون ذلك؟ بيد أن فهم رؤية ويلسون قد تساعدنا إلى حد بعيد على استبعاد شبح ويلسون بصورة نهائية. لقد أخفق ودرو ويلسون وزعماء دول الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى في إرساء سلام دائم مع خصمهم المهزوم ألمانيا. كان ويلسون الوحيد بين أقرانه الذي فهم المشكلة: إذا لم تُجتذب ألمانيا، بلغة أيامنا، «من العزلة»، ولو أن الألمان لم يتعرَّضوا للإذلال والشعور بالخديعة، ولم يجنحوا إلى مزيد من جنون العظمة، كما ظهروا في الحرب، فأنا لا أتردد، كما ذكر ويلسون، في القول «إن الحرب التي نخوضها، رغم كل ما حفلت به من أشكال الرعب، لا يمكن مقارنتها بالحرب التي سوف نواجهها في المرة القادمة»[4]. ومن دواعي الأسف أن هذا ما حدث بالفعل. لقد كانت معاملة الحلفاء لألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى مثالاً **لعدم** الحيلولة دون نزاع بين الدول الكبرى تعتبر دروسه مهمة أساسية للولايات المتحدة والغرب في القرن الحادي والعشرين: «إخراج روسيا والصين من العزلة».

هنا تتضح بأبشع صورة كيف أنبتت البذورُ التي زُرعت الحربَ العالمية الثانية. في 9 تشرين الثاني / نوفمبر سنة 1918 تنازل القيصر وليام الثاني عن العرش بصفته إمبراطوراً لألمانيا في أعقاب انتفاضة شعبية. أعقب ذلك اجتماع في عربة قطار في غابة كومبين Compigne في فرنسا، حيث وقع ممثل حكومة ألمانيا الجديدة هدنة وافقت ألمانيا بمقتضى شروطها على تسليم السلاح. وفي الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر من سنة 1918 سرى مفعول الهدنة، منهية بذلك الحرب العالمية الأولى[5].

كانت ألمانيا عند توقيعها للهدنة تضع ثقتها في «المبادئ الأربعة عشر» لودرو ويلسون التي كانت، حسب قناعة ويلسون، ستؤدي إلى «سلام بدون منتصرين» وهذا يعني أساساً عدم توقيع معاهدة سلام عقابية بحيث تتمكن ألمانيا من إعادة بناء نفسها في جمهورية ديمقراطية، وبواسطة «عصبة الأمم» التي ستعزز السلام في أوروبا بعد ذلك. وعند توقيع الهدنة لا يكون هناك جندي

أجنبي واحد يحتل أرضاً ألمانية. والحق أن كثيراً من الجنود والمدنيين الألمان اعتقدوا، على أساس برنامج ويلسون لإنهاء الحرب وضمان السلام، أن ألمانيا لم **تخسر** الحرب في الواقع. ورفعت إحدى المدن الألمانية راية مشهورة ترحب بعودة القوات المحاربة كتب عليها: «أهلاً بالجنود الشجعان، لقد قمتم بواجبكم. الله وويلسون سوف يدبران الأمور»[6].

قد يتوقع المرء أن تسود كلمة الله، ولكن ليس كلمة ويلسون. فممثلو فرنسا وبريطانيا وإيطاليا ـ وهم الحلفاء الثلاثة الكبار للولايات المتحدة ـ لم يكن يعنيهم من معاهدة ڤرساي إلاّ غرض واحد هو: معاقبة ألمانيا باستقطاع أكثر ما يمكن من ثروتها وأراضيها، وبهذا تصبح ضعيفة وغير قادرة على تهديد جاراتها بعد ذلك. ووفقاً لشروط المعاهدة يخسر الألمان ما مقداره 25 ألف ميل مربع من أراضيهم يقطنها حوالى 6 ملايين إنسان، ويخسرون جميع مستعمراتهم عبر البحار، وكثيراً من مواردهم الطبيعية وقدرتهم الصناعية.

ولكن الجانب الذي أغضب الألمان كثيراً في معاهدة السلام هذه كانت الإهانة الواردة في الفقرة 31، التي تقضي بأن تتحمل ألمانيا مسؤولية وذنب الحرب العالمية الأولى. وهي تنص على:

تؤكد الحكومات الحليفة والمتضامنة، وتوافق ألمانيا، مسؤولية ألمانيا وحلفائها عن التسبب بالخسائر والأضرار التي لحقت بالحكومات المتحالفة والمتضامنة ومواطنيها نتيجة الحرب التي فرضت عليهم بسبب عدوان ألمانيا وحلفائها[7].

اضطرت حكومة ڤايمار إلى الموافقة على هذا، فأفقدها ذلك الكثير من مصداقيتها أمام الشعب الألماني، الذي شعر بالخديعة ـ من جانب ويلسون ومن جانب حلفائه الغربيين. وكذلك شعر كثير من الألمان بالخديعة بسبب الجماعات الذين سيقاسون على نحو مفجع إثر مجيء النازيين إلى السلطة سنة 1933: الألمان المسالمون، واليهود، والجمهوريون، والشاذون جنسياً،

والاشتراكيون. وهم سيصبحون كبش الفداء في التحويل النازي الناجح لمشاعر الخديعة والكراهية الشديدة النابعة من معاهدة ڤرساي إلى وقود لآلة حرب متعصبة.

لقد كانت المعاهدة، كما كتب المؤرخ دونالد كاغان، من جامعة يال، «غير تصالحية بما يكفي لإزالة الرغبة في التغيير، حتى على حساب الحرب، ولا هي قاسية بما يكفي لجعل حرب أخرى مستحيلة»[8]. وبإذلال ألمانيا وبإخماد كل رجاء متوقع منها، وبإشعال مشاعر الإحساس بالخديعة والحاجة إلى الانتقام، ساعد الحلفاء في ڤرساي في زرع بذور خرابهم على يد ألمانيا في الحرب العالمية الثانية.

إذا لم يُلتفت باهتمام إلى دروس الرمز الأخلاقي لويلسون، فإن الحرب العالمية الثالثة يمكن أن تقع في وقت ما من هذا القرن. مثل هذا الحديث يبدو شديد الاحتمال في الوقت الحاضر وسيظل كذلك بعض الوقت. ولكننا مع هذا نُميّز تشابهاً خفياً بين مشاعر ألمانيا بالخديعة سنة 1919 ومشاعر روسيا والصين بعد الحرب الباردة. والأكثر إثارة للقلق أننا نرى أيضاً أوجه التشابه بين حماسة المنتصرين بإذلال ألمانيا في سنة 1919 والافتقار إلى التأمل. وهو ما يبدو واضحاً في الغرب ـ وخاصة في الولايات المتحدة ـ في وضع الدول الشيوعية «الخاسرة» في الحرب الباردة في النصف الثاني من القرن الماضي. لهذه الأسباب نحن نعتقد أن نزاعاً ما بين دولة كبرى كالصين أو روسيا (أو كلتيهما) والولايات المتحدة ليس مستحيلاً، والواقع أن خطر مثل هذا النزاع يمكن أن يتفاقم مع الوقت إلاّ إذا عملنا على تقليص المخاطر. في سنة 1919 عندما جلس المتحاربون في الحرب العالمية الأولى يتفاوضون في باريس، كان خطر حرب أخرى بين الدول الكبرى ضئيلاً أيضاً. وفي سنة 1933، مع صعود النازيين إلى السلطة، كان الوقت قد تأخر كثيراً للحيلولة دون الحرب. لهذا يجب أن يكون هدفنا: الحيلولة دون وصول قرننا الحادي والعشرين إلى المعنى الرمزي لسنة «1933».

التزامات الحيلولة دون نزاع بين الدول الكبرى

أوصينا في الفصل الأول ببذل جهد خاص في القرن الحادي والعشرين لتقليص خطر الحرب بين الدول العظمى. وإن المهمة البالغة الدقة التي تواجهنا اليوم في هذا الصدد هي التكامل مع روسيا والصين في العلاقات مع الدول العظمى الأخرى تماماً كما تصالحت كل من فرنسا وألمانيا بعد قرون من العداء، وتماماً كالمصالحة بين الولايات المتحدة واليابان بعد الحروب الأكثر وحشية بينهما. فمن السهل أن ننسى كم كانت المصالحة مدهشة بين ألمانيا واليابان من جهة، والولايات المتحدة وباقي الدول الغربية من جهة أخرى، بعد الحرب العالمية الثانية. ولكن هل يمكن أن يتكرر ذلك ثانية؟ ألا نستطيع أن نتحرك نحو ضم روسيا والصين كليةً إلى «القرية العالمية» في القرن الحادي والعشرين؟ ـ في علاقة عالمية متوافقة مزدهرة مع الدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة؟

في سعينا لمعالجة هذه المسألة بات من الواضح أكثر من أي وقت مضى أن الحرب الباردة، رغم خصوصياتها، كانت تتسم بكثير من خصائص **حرب** بين الدول الكبرى. قبل أحداث سنة 1989 المذهلة، على سبيل المثال لم يكن لدى الغرب أي تفكير جدي يذكر، وخاصة في الولايات المتحدة، نحو إجراء مصالحة أو تكامل مع روسيا والصين في إطار نظام دولي من القيم والمعتقدات والمؤسسات المشتركة. كانت «الكتلة» الشيوعية هي العدو، وكان لها نظامها الخاص ـ ومنظماتها الاقتصادية والأمنية المشتركة. وكان الهدف الأساس لهذه المنظمات، لدى كلا الجانبين، الحيلولة دون إجراء أي تكامل بين النظامين. وكانت المصالحة بالمعنى المقبول لدى كلتا الكتلتين تعتبر أشبه بحلم مستحيل، والاقتراحات التي تفيد العكس كانت تعتبر عادة لدى كلا الطرفين بمنزلة تحريض أو استعداء. كان التركيز يجري على التضامن داخل الكتلة، وليس التكامل بين الكتلتين. وكان الرسميون والمواطنون العاديون في كل جانب من الحرب الباردة يستيقظون كل صباح على حرب، حرب أبرد كثيراً من الحربين

الماضيتين ولكنها مع هذا هي حرب، ونتيجتها جانب رابح وآخر خاسر.

وأكثر ما يدهش في الحرب الباردة أنها لم تنفجر في نزاع عسكري بين اثنتين أو أكثر من الدول الكبرى في كل جانب. إنها انتهت بدلاً من ذلك بـ«أنين» شيوعي مفاجئ وغير متوقع بدلاً من «ضجة داوية» لانفجارات نووية كانت تشكل الرعب الأول لتلك الفترة بكاملها. انهار الاتحاد السوفييتي وفقدت الإيديولوجية الشيوعية مصداقيتها عالمياً إلى غير رجعة (على الرغم من أن بعض الأحزاب الشيوعية ظلت ممسكة بزمام السلطة في بعض البلدان ومن بينها الصين). جرى كل ذلك بدون غزو واحتلال غربي عسكري، وبدون أي نوع من «الاستسلام» الرسمي. وحدث كل ذلك بصورة سلمية وكان مثار دهشة ورضا.

ولكن هذه البركة العظيمة للحرب الباردة ـ «برودتها» النسبية، ومنها مضمونها السلمي ـ هي بمعنى ما لعنة فترة ما بعد الحرب الباردة، لأنها تحاكي بطريقة غريبة النتيجة التي وصلنا إليها بعد الحرب العالمية الأولى. فكما جعلت الدول الكبرى الموقعة على اتفاقية ڤرساي ألمانيا في العشرينيات مُهانة ومزعزعة الاستقرار ومفلسة وتشعر بالمرارة، كذلك فإن روسيا والصين تشعران من عدة وجوه بالعزلة ـ سياسياً، واقتصادياً، وعسكرياً، واجتماعياً، ونفسياً ـ عن المجموعة الدولية التي أوجدتها الدول الكبرى الأخرى. وروسيا والصين، بطريقهما المنفرد، ما تزالان تشعران إلى حد بعيد «بالعزلة»، كما كانت تشعر ألمانيا قبل ثمانين سنة خلت، وفي حين أن التاريخ لا يعيد نفسه أبداً بدقة، فإن المقارنة مع نتيجة الحرب العالمية الأولى تعطينا سيناريوهات واقعية تتعلق بالنتائج المحتملة لترك روسيا والصين معزولتين عن الغرب.

من المفيد أن نتذكر لماذا لم يقدّم النزاع ما بين الدول الكبرى ـ أي الحرب العالمية الثانية ـ في كثير من المعاني، دروساً مفيدة لأولئك الساعين إلى كيفية تحقيق التكامل والمصالحة مع روسيا والصين في القرن العشرين. الفرق

واضح ولكنه مهم بوجه حاسم: فالاستسلام غير المشروط وما تلاه من احتلال لكل من ألمانيا واليابان مكّن الولايات المتحدة والغرب من **فرض** تكامل سريع ومصالحة نهائية مع خصومهم السابقين، ولكن لا تتوفر مثل هذه الإمكانية لكل من روسيا والصين كي تدخلا ضمن التيار السائد في القرن الحادي والعشرين.

في غياب احتلال عسكري لروسيا والصين، والاستحالة التالية لوصاية مفروضة عليهما على طريقة إقامة مجتمع مدني غربي الطابع وعلاقات سياسية واقتصادية غربية، ما هي الوسيلة المباشرة التي تُمكن الولايات المتحدة والغرب من إخراج هاتين الدولتين من «عزلتهما»؟ كيف يمكن تحقيق ذلك تجاه عزلة كل من روسيا والصين، وتجاه الشك من جانب الولايات المتحدة مما قد يثير أزمة قد تؤدي إلى مواجهة عسكرية؟ إذا كنا لا نستطيع أن نعيد قولبة روسيا والصين وفقاً للقيم السياسية الغربية، فكيف يمكن أن نصل إليهما ونتواصل معهما ونطور حواراً لاستكشاف مشترك حول مضمون تحقيق التكامل والمصالحة معهما؟ هذه هي الأسئلة الجوهرية التي تتعلق بالحيلولة دون نزاع بين الدول الكبرى في القرن الحادي والعشرين.

الالتزام الأول: انشر الاعتناق(*) الواقعي

جوابنا هو نشر «اعتناق واقعي»، وهو عملية، نعتقد، أنها ينبغي أن تكون في صميم أية استراتيجية ناجحة لإخراج روسيا والصين من «عزلتهما». إن اتخاذ الخيار غير الواقعي (أو المطلوب)، سياسة تقوم على اعتناق، لهي فكرة آن أوانها.

لنفكر بهذه الطريقة: سياسة هدفها لا الوعظ بل الإصغاء، لنتعلم شيئاً من تاريخ روسيا والصين وثقافتيهما، بدلاً من الإعلان عن فضائل تاريخنا وأنظمتنا،

(*) المقصود بالاعتناق هنا توضيح موقف بجلاء للآخرين مع إبداء استعداد مماثل لفهم مواقفهم - المعرّب.

لنعاملهما، فعلياً كمساويين لنا كشعبين وثقافتين تسعيان للسلام والسكون، كما تسعيان أيضاً للكرامة والاحترام. وهكذا فإن استراتيجية اعتناق واقعي ينبغي أن تؤكد منذ البداية إعادة دراسة الروس والصينيين، وإعادة دراسة الأمريكيين والزعماء والمواطنين في الدول الغربية الكبرى الأخرى.

والاعتناق ليس له علاقة بالتعاطف، وكثيراً ما يجري الخلط بينهما. لقد كان رالف ك. وايت ـ وهو موظف سابق في الوكالة الأمريكية الرسمية للمعلومات، ثم أصبح بعد ذلك باحثاً سياسياً ونفسياً في جامعة جورج واشنطن ـ مدافعاً قوياً لفترة طويلة عن اعتناق واقعي في السياسة الخارجية، وفرّق بصورة دقيقة بين الاعتناق والتعاطف. فهو يقول:

الاعتناق هو الترياق **العظيم** لجميع صور سوء الإدراك الحسي لتشجيع الحرب. إنه يعني ببساطة تفهم أفكار ومشاعر الآخرين. وهو يختلف عن التعاطف الذي يعرف بأنه شعور تجاه الآخرين يدل على توافق معهم. لذلك فإن الاعتناق بين الخصوم ممكن من الناحية السيكولوجية حتى عندما يكون النزاع حاداً جداً بحيث يكون التعاطف خارج الموضوع. نحن لا نتحدث عن الدفء أو المصادقة، ولا نتحدث بالتأكيد عن الاتفاق أو الانحياز، بل عن تفاهم واقعي[9].

ويتابع وايت شرح ما يسمى تطبيق الاعتناق بغية تخفيف مخاطر النزاع: كيف يمكن تحقيق الاعتناق؟ إنه يعني القفز في الخيال إلى جسد إنسان آخر، والتخيل كيف يبدو في عالمه من خلال عينيه، والتخيل كيف يمكن أن تشعر إزاء ما ترى. إنه يعني **أن تكون** الشخص الآخر، على الأقل لفترة قصيرة، وتؤجل التحليل المتشكك إلى وقت آخر... إنه يعني على الأغلب محاولة النظر الشخصي إلى سلوك مجموعته بأمانة، كما قد تبدو عندما ترى في أعين الآخرين، معترفاً أن عينيه تبرقان بالتأكيد، ومعترفاً أيضاً أنه يتمتع بمزية عدم رؤية سلوك جماعتنا بالمنظار الوردي الذي نستخدمه دوماً. قد يكون لدينا شيء

من عدم الثقة والخوف والغضب، لم نسمح لأنفسنا أن نكتشفه، هنا تتجلى الأمانة. النظرة الصادقة إلى الآخر تتضمن أن تنظر بأمانة إلى نفسك[10].

الولايات المتحدة اليوم هي القوة العظمى الوحيدة في العالم، وهي تعتبر من جانب الأصدقاء والأعداء على حد سواء دولة متعجرفة وتفتقر إلى الموضوعية تجاه نفسها. ولذا فقد يكون مفيداً للأمريكيين نشر استراتيجية اعتناق واقعي يكون بمنزلة «نظرة صادقة للذات» غير مسبوقة. وإذا ما حدث ذلك فسيكون له أثر مذهل على الروس والصينيين الذين كثيراً ما عبروا عن وجهة نظر مفادها أنه من العبث التحدث مع الأمريكيين لأنهم يعتقدون أن نظامهم السياسي لا تشوبه شائبة ولا حدود لتطبيقه في أي مكان في العالم.

كذلك حدد وايت ثلاثة أخطاء دقيقة تحول بين السياسة الخارجية وحدوث الاعتناق: (1) عدم رؤية تطلع الخصم إلى السلام، (2) وعدم رؤية خشية الخصم من التعرض للهجوم، (3) وعدم تقدير غضب الخصم المفهوم[11].

روبرت مكنامارا: الأخطاء التي حددها رالف وايت ـ وآخرون ـ قد ارتكبت في كلٍّ من واشنطن وهانوي معاً أثناء تصاعد حرب ڤيتنام ما بين سنتي 1961 و1968، ولكن ليس أثناء الفترة القصيرة العسيرة لأزمة الصواريخ الكوبية. سأستشهد فيما يلي ببعض الوقائع المهمة: من مؤتمر 1997 في حزيران/ يونيو حول حرب ڤيتنام، الذي عقد في هانوي، ومن نص التسجيلات الصوتية للرئيس كينيدي في 27 تشرين الأول / أكتوبر 1962، وهو أخطر يوم في أزمة الصواريخ الكوبية. كلتا الواقعتين تصور نقطتين: الأولى، بدون ذلك الاعتناق الواقعي الذي وصفه رالف وايت، من الممكن لبلدين ـ الولايات المتحدة وڤيتنام الشمالية أن يخوضا حرباً مدمرة أحدهما على الآخر رغم أنه لا يوجد تقريباً تاريخ للنزاع بينهما ولا خلافات حول الأراضي من أي نوع. والنقطة الثانية: أنه عندما يسود الاعتناق الواقعي في حل النزاعات تصبح الحلول التي تقترب من المعجزات ممكنة. لم يكن لدى الرئيس جونسون ومستشاريه

الاعتناق الواقعي خلال تصاعد حرب ڤيتنام، وخاصة في الفترة ما بين 1965 و1968، عندما أضحت الحرب حرباً أمريكية. من ناحية ثانية كان مثل هذا الاعتناق متوفراً لدى الرئيس كينيدي وبعض مساعديه في تشرين الأول / أكتوبر 1962.

من بين أصعب المناقشات، وأكثرها فائدة، في هانوي كان التبادل المبدئي «للأفكار» القائمة على عادات أو مرتكزات سابقة. فخلال هذه المناقشة التي استغرقت وقتاً طويلاً شرح ممثلو كل جانب للطرف الآخر أفكارهم المرتكزة إلى فترة الستينيات وتصوراتهم لأفكار خصومهم في ذلك الوقت. وكما ستلاحظ في الاقتباس التالي، ليس من السهل بعد ثلاثة عقود من الأحداث تنقية الأجواء و«إحلال» تلك القناعات محل تلك الآراء الخاطئة على مر الأيام.

كان محاوريَّ المرحوم نغوين كوتاك، وزير خارجية ڤيتنام السابق ورئيس الوفد الڤيتنامي في مؤتمر حزيران / يونيو 1997، ونغوين كاك هيونه الذي كان عند إجراء النقاش واحداً من المختصين البارزين من ڤيتنام الشمالية في شؤون الولايات المتحدة.

روبرت مكنامارا: قبل مناقشة وجهة النظر الأمريكية أردت أن أبيّن، وبصراحة تامة، أنني لو كنت شيوعياً ڤيتنامياً في كانون الثاني / ديسمبر 1961، عندما جاءت إدارة كينيدي إلى السلطة، لاعتقدت، كما هم، أن هدف الولايات المتحدة في جنوب شرق آسيا هو تدمير حكومة هانوي وحليفتها، جبهة التحرير الوطنية، وأن الولايات المتحدة هي عدو لا يعرف الرحمة هدفه تحقيق النصر على بلادهم.

ولكن لو كنت شيوعياً ڤيتنامياً وكانت تلك أفكاري لكنت مخطئاً تماماً. فنحن في إدارة كينيدي ليس لدينا هذه القصص، وليس لدينا مثل هذه الأهداف تجاه ڤيتنام. نحن نعتقد، على العكس من ذلك أن مصالحنا تُهاجَم في جميع أنحاء العالم من قبل حركة شيوعية موحدة وبالغة التنظيم، تقودها موسكو

وبكين اللتان نعتقد، وأنا أفكر الآن بطريقة غير سليمة، أن حكومة هوشي منه هي مخلبهما.

وهكذا بكل بساطة كانت قاعدتنا الفكرية كما حددها الرئيس أيزنهاور: الخوف من «تساقط أحجار الدمينو».

نغوين كو تاك: في تقديري أن المشكلة الأساس في ظهور مثل هذه القناعات الفكرية أن الولايات المتحدة وخاصة في فترتي الخمسينيات والستينيات بدت كمن يريد أن يكون شرطي العالم. السيد مكنامارا اقتبس بوجه صحيح من خطاب كينيدي الافتتاحي دليلاً على وجود قناعة فكرية معادية للشيوعية ـ الخوف من أن تجتاح الشيوعية الولايات المتحدة، أو شيئاً من هذا القبيل. ويبدو لنا فعلياً من خطاب كينيدي أنه كان يشدد على أن الولايات المتحدة ترغب في أن تصبح «سيدة العالم»، وبهذه الطريقة ستحل الولايات المتحدة محل البريطانيين والفرنسيين الذين بنوا سياساتهم في السابق على هذه الرغبة. في الجزء الذي يخصّنا من العالم كان «الخوف من تساقط أحجار الدمينو» مرتبطاً «بتهديد العرق الأصفر» ـ لذا كان هذان السببان أو الذريعتان، في الواقع، يبرران للولايات المتحدة دورها الإمبريالي.

لذا أود أن أقول، مع كل الاحترام للسيد مكنامارا، إن القناعة الأمريكية، كما يقول، غير صحيحة، ولكن قناعتنا القيتنامية ـ أي تقويمنا للولايات المتحدة ـ صحيحة تماماً.

نغوين كالُ هيونه: السيد مكنامارا قال إن الولايات المتحدة ليس لديها أهداف استعمارية. الولايات المتحدة لم تنهج على وجه الدقة المثال البريطاني أو الفرنسي. عندما غزا البريطانيون أو الفرنسيون المنطقة أوجدوا حاكماً استعمارياً، مطلق الصلاحية. وإذا كان هناك إمبراطور أو ملك فكانوا يستخدمونه دمية ما دام أنه منصاع لهم. الولايات المتحدة أوجدت نظاماً صنيعة لها عن طريق استخدام مساعدة اقتصادية وعسكرية تحت إشرافها. في هذا النظام كان السفير الأمريكي يقوم بدور الحاكم العام البريطاني أو الفرنسي.

والسفير الأمريكي كان يتلقى الأوامر من واشنطن وينقلها إلى الحكومة الدمية في سايغون. وإذا لم توافق حكومة سايغون الولايات المتحدة، فإن الأخيرة لن تتردد في الإطاحة بها.

وهنا تأتي النقطة الثانية... في حرب المقاومة ضد الفرنسيين عشنا في الأدغال قرابة عشر سنوات وفي النهاية هزمناهم دون أن نعرف الكثير عن سياساتهم واستراتيجياتهم. ومع هذا كنا نعرف الفرنسيين أكثر مما نعرف عن أمريكا، نظراً لأننا عاشرناهم ما يقارب 100 سنة. ولكن معلوماتنا عن الولايات المتحدة التي أصبحت عدوتنا لم تكن كافية أبداً. هذه حقيقة. كان من الطبيعي ألاَّ نعرف الكثير عن شؤون الولايات المتحدة الداخلية، والدور الذي تضطلع به سياستكم الداخلية في الحرب، وخاصة في الأيام الأولى لتلك الحرب. ومعلوماتنا عن علاقة أمريكا مع بقية العالم، التي أشار إليها السيد مكنامارا على أنها «عامل جيوسياسي» كانت محدودة جداً. لذلك بنينا استراتيجيتنا وسياساتنا بالدرجة الأولى على أساس تقييم الوضع القائم على أرض المعركة.

في مثل هذه الظروف ماذا يسعنا أن نفعل أكثر لجعل الولايات المتحدة تفهمنا؟ حقيقة نحن لا نعرف كيف نفعل ذلك.

روبرت مكنامارا: نحن بالتأكيد أخطأنا فهم ڤيتنام. ولكن أعتقد في مناقشات هذا الصباح وبعد الظهر، كان ثمة دليل قوي أنكم لم تفهمونا ـ وما زلت أشك حتى اليوم أنكم لم تفهموا تقييمنا للموقف في ڤيتنام. أعتقد أنني أستطيع أن أتحدث عن الرئيسين كينيدي وجونسون، اللذين كنت وثيق الصلة بهما. كما أستطيع بالتأكيد الحديث عن نفسي. نحن لم نعارض ڤيتنام مستقلة موحدة. لا لم نعارض!

لذا دعوني أحاول ثانية وسأكون واضحاً. ما كنا نخشاه أن تكون ڤيتنام مخلب قط في أيدي السوڤييت أو الصينيين... أعتقد أننا أسأنا فهم بعضنا بعضاً. إنها لمأساة. لم نكن معارضين لاستقلالكم. كان هوشي منه على

صواب عندما استشهد بإعلان الاستقلال في بياناته المبكرة سنة 1945، عندما بنى بلاده. لقد آمنا بتلك الآراء (في 1776)، وما زلنا نؤمن بها الآن. أعرف أننا لا نعمل دوماً وفقاً لتلك المعتقدات، ولكنها معتقداتنا الأساسية. لا أعرف إذا كانت تعجبكم، ولا أعتقد أنكم فهمتموها. وأنا متيقن أننا لم نفهم أن تلك قناعتكم. إنها لمأساة إذن أننا سمحنا بوجود مثل سوء التفاهم هذا وآمل ألاً يتكرر ذلك في المستقبل[12].

يا لها من مأساة! كنا نعتقد أن الڤيتناميين الشماليين ينفذون فحسب مطالب السوڤييت والصينيين، وتستحوذ عليهم فكرة نشر الشيوعية في كل أنحاء جنوب شرق آسيا. وهكذا انتقصنا من قوميتهم وأخطأنا تماماً مغزى الحرب كما كانوا يرونها، وهو توحيد بلادهم تحت قيادة ڤيتنامية ـ وليس فرنسية أو يابانية أو صينية، وليس قيادة أمريكية بالتأكيد. وهم من جهة أخرى استنتجوا أن أهدافنا إنما هي أهداف القوى الاستعمارية الأخرى، وذهبوا إلى الحرب ليلقوا بنا خارجاً، والحق أننا لم نكن نريد أن نكون هناك بالدرجة الأولى إلاً كي نحول بينهم وبين نشر الشيوعية. كان هناك اعتناق معدوم تقريباً من جانب كل طرف وعدم تفهم في واشنطن وهانوي للقيم والافتراضات التي كانت توجه سياسات خصومهما.

خلافاً لغياب الاعتناق بين واشنطن وهانوي فيما يتعلق بتصاعد الحرب في ڤيتنام يعتبر المثال التالي للاعتناق هو الأمثل عندما تكون الحزازات ليست كبيرة. إليكم الوضع. إنه نهاية أسبوع أزمة الصواريخ، وهي الأزمة التي كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوڤييتي أقرب ما تكونان من حرب ـ نووية ـ فيما بينهما. في 26 تشرين الأول/ أكتوبر تلقى الرئيس كينيدي رسالة من الزعيم السوڤييتي نيكيتا خروتشيف كانت مفككة وملتبسة بعض الشيء ـ بدا أنها مكتوبة من قبل شخص واقع تحت ضغط كبير ـ ولكن بدا أنها تقترح حلاً لأزمة الصواريخ يمكن أن نقبل به. وكانت الصفقة: يتعهد خروتشيف علناً بإزالة الصواريخ من كوبا، ونحن نتعهد علناً بعدم غزو كوبا كاسترو.

وقبل ليلة من الرد على العرض صرح خروتشيف علناً أنه ينتظر منا أن نجتمع لاستئناف مداولاتنا في اليوم التالي. هذه الرسالة وصفت إلى حد بعيد من جانب مستشاري الرئيس كينيدي بأنها غير مقبولة؛ وأنه إضافة إلى شروط الرسالة السابقة سوف يطالبنا الروس بإزالة ما كانوا يدعونه صواريخ الناتو «المماثلة» عند تخومهم الجنوبية مع تركيا. وعلى الرغم من أن صواريخ الناتو (الأمريكية من نوع جوبيتر) كانت عديمة القيمة عسكرياً، كان هناك جملة من الأسباب تدعونا إلى عدم قبولها. فالصواريخ كانت تابعة لحلف الناتو ووصايته وليس للولايات المتحدة، وقال لنا الأتراك وأصدقاؤنا في الناتو بوضوح إن مثل هذه الصفقة سوف تبدو وكأنها تخلٍّ عن حليف في الناتو بغية تسوية نزاع محلي في نصف الكرة الغربية لا علاقة له (كما كانوا يرون) بحلف الناتو على الإطلاق.

عند نقطة ما من نقاط النقاش اقترح للولين Llewellyn Thompson تومبسون (تومي)، وهو سفير سابق في موسكو ولديه خبرة واسعة بشؤون السوفييت وخبرة شخصية مع خروتشيف، أن نتجاهل ببساطة الرسالة الثانية التي تحتوي على صفقة غير مقبولة، وأن نجيب على الرسالة الأولى. وكان الرئيس كينيدي متشككاً في هذه الاستراتيجية، وله في هذا سبب وجيه. فالعرض الأصلي جاء عن طريق رسالة شخصية من خروتشيف، ولكن العرض الثاني كان علنياً، وهو ما قاد الرئيس إلى الاقتناع بأن الرسالة الثانية لا بد أن تكون علنيه في موسكو. وهذا ما توصلنا إليه، ربما في أهم تبادل للآراء طوال الأزمة برمتها، نظراً للمخاطر في تلك اللحظة البالغة الحرج، والتي كانت واحدة من أهم المناقشات في فترة ما بعد الحرب الباردة بكاملها.

الرئيس كينيدي: لن نُخرج هذه الصواريخ من كوبا.. ربما إلى أي مكان آخر... أعني بالمفاوضات... لا أعتقد بوجود أي شك بأنه سيتراجع الآن بعد أن أخرج الأمر إلى العلن يا تومي. إنه لن يخرجها من كوبا.

للولين تومبسون: لا أوافقك سيادة الرئيس. أعتقد أنه ما تزال هناك فرصة لإبعادها عن كوبا.

الرئيس كينيدي: هل سيعود؟

للولين تومبسون: يبدو لي أن الشيء المهم لخروتشيف هو أن يكون قادراً على القول: «أنقذت كوبا، لقد أوقفت غزواً»، وهو يستطيع أن يفعل ذلك إذا شاء، ولكن له رأياً آخر فيما يتعلق بتركيا، وهذا ما يمكن أن نناقشه فيما بعد.

الرئيس كينيدي: حسناً[13].

أشعر بالارتعاش في كل مرة أقرأ فيها تلك السطور. فمن جهة كان هناك الرئيس والوقت يمضي بسرعة، وهو يتطلع إلى حل الأزمة بصورة سلمية، ولكنه قلق بشأن الاتصالات الثنائية مع خروتشيف. ومن جهة ثانية كان هناك تومي تومبسون، وهو موظف كبير رفيع الشأن في وزارة الخارجية، ولكنه من حيث المرتبة الفعلية كان من أدنى أعضاء الفريق الذي يتولى النقاش حول كيفية الرد على خروتشيف. بيد أن قناعة الرئيس الكبيرة بخبرة تومبسون ـ اعتناقه مع خروتشيف والقيادة في موسكو ـ جعلته يناقش المسألة مع تومي ويسمح له بالتصويت في هذه النقطة أو تلك. أمّا تومي الذي كان بطبيعته خجولاً وقليل الكلام، فقد صمد أمام شكوك الرئيس. وأخبر الرئيس أنه إذا تلقى خروتشيف تعهداً بعدم الغزو فسيعلن الانتصار أمام شعبه ويُخرج الصواريخ اللعينة من كوبا، ولا يهم أية رسالة ستكون الأولى وأيهما ستكون سرية أو علنية. وهذا ما حدث بالفعل.

أشكر الله أنه كان لدينا رئيس «عملي جداً» ـ على حد تعبير مكجورج بوندي ـ شغوف بالبحث والتحقق، وقوي، ومصمم على إيجاد حل بعيد عن الحرب، وكان لدينا مستشار سمح له اعتناقه مع السوفييت أن يظهر في اللحظة المناسبة، أن يكون رجلنا في روسيا تماماً[14]. بدون الرئيس المفعم بالتصميم

على تجنب نزاع بين الدول الكبرى، ومستشار مفعم بالاعتناق مع خصمنا السوفييتي، لارتعدتُ خوفاً من التفكير بنتائج تلك الأيام الشديدة الخطر.

كتب فيلسوف الاعتناق الكبير، السير إيشعيا برلين، أنه إضافة إلى معرفة الذهن والخصم يتطلب الاعتناق أن يتمتع المرء «برؤية خاصة للكون تكمن في صميم تفكير (الخصم)». هذه القدرة، كما يقول، تسمح للمرء إلى حد ما أن يمثل ثانية الحالات الذهنية عند الآخرين الذين يتعارضون معك أساساً[15]. وهذا ما نسميه «انتشار» الاعتناق، و«امتلاك» القناعة الفكرية التي تختلف افتراضاتها أساساً مع افتراضاتك.

وكتب مايكل إيغناتيف Ignatief أن الإحجام عن نشر الاعتناق في أوضاع وصفناها من قبل هو أمر لا أخلاقي بالضرورة. والعمل بدون اطلاع على الاعتناق، ورفض الاطلاع بصورة كاملة قدر الإمكان على المنطلق الفكري لخصمك المحتمل أو الفعلي هو خضوع لما يسميه «التهرب من الواقع»، أي اتباع سلوك أولئك الذين هم على درجة كبيرة من «الانغلاق داخل خرافاتهم... بحيث لا يسعهم أن يصغوا، أو يسمعوا لأحد، أو يتعلموا من أي أحد سواهم». في مثل هذه الحالات، كما يقول إيغناتيف، «يجري نكران إمكانية الاعتناق: فالتفاهم الإنساني قادر على التغلغل إلى الناقوس الزجاجي للهويات المختلفة. ولكن السلام الاجتماعي في كل مكان يعتمد في بقائه واستمراره على هذا العمل المعرفي من القناعة: عندما يتصل الأمر بالتفاهم السياسي يكون الخلاف ضئيلاً دوماً وتكون سعة الإدراك ممكنة دوماً»[16].

ولكن عندما نتبنّى الاعتناق يصبح من الممكن، كما يشير مثال كينيدي وتومبسون، بناء حل سلمي حتى عندما يكون زخم التاريخ، والسياسة، والبيانات العسكرية الإنذارية التي يواجهها الأطراف تتضمن عداوات مفجعة مسببة للكوارث. وهذا الخيار متوفر تماماً الآن لأي واحد في الولايات

المتحدة، والغرب بصورة عامة، يسعى إلى إيجاد قضية مشتركة مع الروس والصينيين.

الالتزام الثاني: توقع نزاع غير متعمد

هذا هو الالتزام الثاني للحيلولة دون نزاع بين الدول الكبرى: توقع أن يحدث نزاع عسكري بين الولايات المتحدة وروسيا أو الصين على نحو غير متعمد. فالنزاع غير المتعمد ليس نزاعاً يحدث «مصادفة». بل على العكس هو نزاع يحدث بسبب نتائج غير مقصودة لأعمال اتخذت من فاعلين كثيرين، وعلى مدى فترة طويلة، لم يتوقع أي من الفاعلين عند انبثاقها أزمة تقود إلى خطر متزايد بنشوب حرب بين اثنين منهم أو أكثر.

بات من الواضح باطراد أن أخطر التهديدات لأمن دولة كبرى، ولسلام العالم لا تأتي من تهديدات تحدث في لحظتها، ولكن من غير تعمد ـ من نتائج غير مقصودة لتفاعلات بالغة التعقيد في السياسة والتصريحات والأفعال التي تُتخذ مع الوقت من جانب لاعبين متعددين. والحق أن معظم الأعمال الكثيرة الأهمية التي تقود إلى نزاع تستغرق سنوات وعقوداً، أو ربما قروناً قبل أن يبدأ تبادل القتال. **فالتاريخ** ـ بتفسيراته المختلفة ـ ينبغي أن يؤخذ أيضاً بالحسبان بوصفه عامل تفجير محتمل في سياق عملية تقود إلى خطر متزايد لنشوب نزاع.

لم يعرف زعيم في تاريخ أمريكا أهمية الحيلولة دون نزاع متعمد أكثر من ودرو ويلسون. لنستمع إلى ويلسون يتحدث إلى الكونغرس في 8 كانون الثاني / يناير، سنة 1918، في خطبة احتوت على الصيغة الأصلية لمبادئه الأربعة عشر الداعية إلى «حرب بدون منتصرين»:

«ما نطلبه.. أن يتهيأ العالم ليعيش بأمان... جميع شعوب العالم تشارك

عملياً في هذا الاهتمام، ومن جانبنا نحن نرى بوضوح بالغ أنه ما لم تتوفر العدالة للآخرين فهي لن تتوفر لنا»[17].

لم يقل ويلسون ذلك لأنه كان **يعلم** أن حرباً عالمية ثانية ستحدث إذا لم تفكر الولايات المتحدة وحلفاؤها في أوروبا بهذه الطريقة. وهو لم يدَّعِ أبداً أنه يعرف ذلك جيداً. وما كان بوسعه أن يؤكد احتمال جائحة أخرى الآنَ أو فيما بعد.

على خلاف ذلك كان ويلسون يشعر أنه مضطر للتفكير بهذه الطريقة المتعددة الجوانب على نحو جذري لسببين كلاهما ينطبق بدرجة متساوية على القرنين العشرين والحادي والعشرين. الحرب العالمية الأولى كانت أول نزاع يفضي إلى كارثة عالمية. ويجب أن نتذكر دوماً أن أحداً لم يكن يتوقع ذلك. كارثة من هذا النوع ما كان أحد يتوقعها أو يفكر بها إلاَّ كمادة من قصص الخيال. وكان هذا السبب الأول الذي جعل ويلسون ينبه على الخطأ الناشئ عن الإهمال والتفكير المتعدد الجوانب. كان لا بد من اتخاذ إجراء ما وبسرعة؛ إجراء يمكن أن يحول دون حدوثها ثانية. و«عصبة الأمم» ـ التي كانت فكرة ويلسون وحده ـ قامت على فكرة ثورية هي أن قضايا الأمم يجب أن تتقرر داخل منظمة متعددة الأطراف تتمتع بالانفتاح والشفافية. وثانياً، كان ويلسون مقتنعاً أن التوافق المتنامي للعالم وتطوره التكنولوجي ـ وهو ما ندعوه اليوم «العولمة» ـ قد جعل النظرة التقليدية للأمن نظرة مطلقة، والتي كانت تؤكد أن التهديد، والردع والسرية في خدمة الدرجة القصوى من التنبه في مواجهة العدو.

إنها لحقيقة غريبة من حقائق الحياة ونحن ندخل القرن الحادي والعشرين أنه في الوقت الذي باتت فيه قدرتنا على تدمير رفاقنا البشر عملياً لا حدود لها والعولمة والاتصال المتبادل فيما بينهما فوق التصور، نقول رغم هذه التطورات ما تزال مفاهيم الأمن القومي والسياسة الخارجية تستند إلى حد بعيد على افتراضات التهديد المباشر، والتهديد المعاكس وما أشبه ذلك. وفي أواخر

الخمسينيات بدأت تظهر أفكار جديدة إلى حد ما، حيث بدأ المختصون دراسة مضامين محاولة «الدفاع» عن بلد ما في وضع لا جدوى فيه من الدفاع قبالة صواريخ باليستية سوفييتية مزودة برؤوس نووية. في هذه الفكرة المقلقة الفريدة تكمن جذور ما يسمى نظرية الردع النووي التي سعى كل طرف في فترة الحرب الباردة إلى إقناع عدوه أن الهجوم من جانبه من المحتمل أن يفضي إلى أضرار غير متوقعة تولد ضربة انتقامية.

قاعدة هذه التطورات كانت أقل راحة للأمريكيين من معرفة أن الروس (بعد 1949) والصينيين (بعد 1964) بات لديهم أسلحة نووية. وبات الوضع كالتالي: لتجنّب الدمار النووي، على المرء أن يعتمد على تعقل العدو وحذره بحيث لا يتخذ الضربة الماحقة الأولى ضد الولايات المتحدة. بمعنى آخر ينبغي على الروس والصينيين أن يصبحوا **متعاونين** معنا ونصبح متعاونين معهم طلباً لبقائنا المشترك. علينا أن نثق بعضنا ببعض ـ وهذه مهمة ليست بالسهلة لأي طرف في أي وقت.

كان أحد أفضل المعبرين البارزين الأمريكيين عن هذا الوضع الخاص الباحث الاستراتيجي والاقتصادي من جامعة هارڤرد توماس شيلينغ Schelling. فقد كان تحليل الحرب الباردة يعني له أن التنافس بين القوى العظمى في العصر النووي بات محكوماً بدرجة أقل بالقدرات العسكرية الخاصة منه بما أسماه «المنافسة في المجازفة»[18]. ومحاولات الإكراه أو الإجبار، بحسب رأي شيلينغ باتت الآن «نفسية» بالدرجة الأولى ـ تتضمن جهوداً لمعالجة خطر نشوء أزمة يمكن، عن طريق عملية ناجمة عن **إهمال** لا يمكن التنبؤ بها تفصيلاً، أن تقود إلى حرب نووية. ويتكهن شيلينغ أن القوة العظمى التي قد تكون راغبة في التساهل إزاء خطر أكبر لنزاع كهذا يمكن أن يتحول إلى نزاعات بين دول كبرى ـ إذا أمكن تجنب الحرب، وخاصة الحرب التي تتضمن أسلحة نووية.

ولاحظ شيلينغ أيضاً أن ما دعاه «تهديدات تترك مجالاً للصدفة» ذات

نتيجة متميزة وغير متوقعة بين الدول الكبرى في العصر النووي: التهديدات هي كتهديد للمُهَدِّد بقدر ما هي تهديد للمُهَدَّد. وعن وضع كهذا كتب شيلينغ أن التهديد يصبح «غير شخصي وخارجياً بدرجة أكبر للمشاركين فيه، ويصبح التهديد جزءاً من البيئة أكثر ما هو اختبار للإرادة بين متخاصمين»[19].

ولم يظهر ذلك على نحو أوضح من أزمة الصواريخ الكوبية في تشرين الثاني / نوفمبر 1962، التي أضحت بمنزلة نوع من المختبر التعليمي لجميع الأطراف فيما يتعلق بضرورة التفكير العميق في كيفية احتمال نشوب الحرب. ويقدم لنا ريتشارد نويشتاد وغراهام أليسون إعادة تركيب معقولة لطريقة كينيدي في التفكير أثناء الأزمة:

إذا استمر الروس في طريقهم لمدة 72 ساعة فقط، فعلينا أن نتخذ خطوة تصعيدية، كأن نقصف مواقع كوبية. عندئذٍ سيقصفون ـ منطقياً ـ مواقع تركية. ثم نقوم نحن... ثم يقومون هم... **الخطوة الثالثة** هي التي كانت تستحوذ على كينيدي. إذا كانت قدرة خروتشيف على الحساب والتحكم شبيهة بما لديه فإن أياً من الطرفين لن يتخذ الخطوة الثالثة بما تعنيه من دمار شامل[20].

ويلاحظ نويشتاد وأليسون «أن ليس ثمة ما يدل بوضوح أكبر من أزمة الصواريخ، على أنه نظراً للحرب النووية فثمة جنون مرعب ما بين **عدم الاحتمال**، و**الاستحالة**»[21]. وهذه نقطة بالغة الدقة فيما يتعلق بالتركيز على النزاع غير المتعمد: فالاحتمالات المتعلقة بالنزاع القائمة على تقدير التهديد وتقييمه لا تعود حاسمة بالضرورة، فأزمة الصواريخ أظهرت أن أخطر نوع من النزاع بين القوى العظمى يمكن أن ينتج عن تصرفات جانب ما لا يقصد التهديد، ولكنه يبدو كأنه تهديد.

روبرت مكنمارا: عندما عُرف لأول مرة أن الروس كانوا يبنون قواعد للصواريخ في كوبا، اعتقد كينيدي وكثير من مستشاريه أن ضرب مواقع

الصواريخ أمر محتم تقريباً. وكان السبب في هذا: أن الرئيس كان قد حذر الروس علناً في الشهر السابق أنهم إذا وضعوا الصواريخ في كوبا «فستنجم أسوأ العواقب» ـ وهذه عبارة دبلوماسية تعني أنه سوف يزيل هذه الصواريخ بالقوة إذا اقتضت الضرورة[22]. ولكن بالطبع لن نتخيل أبداً أنهما سيفعلان ذلك حقاً لسبب بسيط وهو أننا وجدنا ذلك أمراً غير مقبول تماماً.

ولكن بعد ساعات قليلة من النقاش أصبح من الواضح لبعضنا ـ وخاصة لي ـ أن علينا أن نضع بالاعتبار ماذا سيفعل الروس إذا هاجمنا، واستناداً إلى مستوى وموقع ردهم العسكري، كيف نستطيع أن نرد على ردهم. لقد كان ديك نويشتاد وغراهام أليسون على حق تماماً. أنا شخصياً لا أستطيع أن أخطو إلى ما وراء «الخطوة الثالثة» بدون المخاطرة في رأيي بتبادل نووي تكون له نتائج مدمرة لنا، وللروس والكوبيين، وللعالم. أردت أن أفعل كل شيء ممكن لتجنب اتخاذ تلك المخاطرة.

جاء الاستفزاز الفوري للمناقشة في الاقتباس التالي بإسقاط السوفييت لطائرة استطلاع أمريكية من نوع U - 2 فوق الأراضي الكوبية يوم السبت 27 تشرين الأول / أكتوبر، ومصرع الطيار، المقدم رودولف أندرسون.

وبدأت أنا وزملائي في مناقشة كيفية الرد. ودعا بعضهم، مثل مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية جون ماككون، ووزير الخزانة دوغلاس يلون، إلى «رد» فوري بمهاجمة القاعدة الجوية الكوبية المسؤولة عن إسقاط الطائرة. وكان الضغط يتزايد، والوقت يجري بسرعة، وكان العمل في قواعد الصواريخ الكوبية يجري على قدم وساق على يد الروس على مدى 24 ساعة في اليوم. عند هذه اللحظة غادر الرئيس الغرفة لبضع دقائق، وانتهزت الفرصة لأشرح وجهة نظري بشيء من التفصيل للآخرين. وكما سيتضح كان اقتراحي بـ«تعطيل» صواريخ حلف الناتو في تركيا في محاولة لتجنب «الخطوة الثالثة» أي الخطوة النووية، الخطوة التدميرية الكارثية التي قد تتخذ أولاً من جانب الروس أو من

جانبنا تتبعها ضربات انتقامية. لم أشعر في حياتي، وأحسب في حياة زملائي، بالحاجة الماسة لتوقع حرب غير مقصودة، والتنبؤ بأن القرارات غير الفعالة من جانب أحد الطرفين يمكن أن تُفضي بطريقة ما، عند نقطة ما، إلى كارثة، ومن ثم الحاجة إلى الخطوات التي ينبغي اتخاذها لتجنبها.

كان النقاش يجري في وقت متأخر من ظهر يوم السبت في السابع والعشرين من الشهر. كنا جميعاً مرهقين. وكانت أنباء إسقاط الطائرة قد بلغتنا تواً. وساد جو من الحماسة يعبر عن الرغبة في مهاجمة القاعدة الصاروخية التي أسقطت طائرة U - 2 في الليلة ذاتها إن أمكن.

روبرت مكنامارا: دعوني أطرح اقتراحاتي ثانية. أولاً؛ ينبغي أن نكون في وضع يمكننا من الهجوم بسرعة. لقد أُطلق النار علينا اليوم. سنرسل طائرة استطلاع غداً. وهذه ستتعرض للنيران بدون جدال. سنقوم بالرد. لا نستطيع أن نفعل ذلك لفترة طويلة. سنخسر بعض الطائرات، وسنستمر في قصف كوبا بعض الوقت ولكننا سنخسر طائرات في كل يوم. لذا من غير الممكن الاستمرار في هذا الوضع طويلاً. لذا ينبغي أن نكون مستعدين لمهاجمة كوبا بسرعة. هذا هو الاقتراح الأول. والآن الاقتراح الثاني؛ عندما نهاجم كوبا سيكون هجومنا هجوماً شاملاً. . . أعتقد شخصياً أن هذا سيؤدي بالتأكيد إلى الغزو. أنا لا أقول إنه سيؤدي بالضرورة إلى ذلك، ولكنه سيؤدي في الغالب إلى غزو.

دوغلاس ديلون: إلاَّ إذا حصلنا على قرار بوقف إطلاق النار في العالم.

روبرت مكنامارا: هذا هو الاقتراح الثاني.

مك جورج بوندي: أو حرب (نووية) شاملة.

روبرت مكنامارا: الاقتراح الثالث أننا لو فعلنا ذلك، وتركنا تلك الصواريخ في تركيا، فأعتقد أن الاتحاد السوفييتي **قد**، وأرجح أنه سوف يهاجم

الصواريخ التركية. الآن الاقتراح الرابع وهو، إذا هاجم السوفييت الصواريخ التركية، فلا بد أن نرد. إذ لا يمكن أن نسمح بهجوم سوفييتي على صواريخ جوبيتر في تركيا بدون رد فعل عسكري من جانب حلف الناتو.

لليولين تومبسون: في مكان ما.

روبرت مكنامارا: في مكان ما، هذا صحيح. الآن، إليكم الاقتراح التالي... الآن الحد الأدنى لرد الفعل العسكري من جانب الناتو على هجوم سوفييتي على قواعد جوبيتر التركية سيكون رداً للأسلحة التقليدية (غير النووية) من جانب قوات الناتو في تركيا، وهذا يعني هجوماً جوياً أمريكياً تركياً على سفن حربية سوفييتية و/أو قواعد بحرية في منطقة البحر الأسود. هذا في نظري الحد الأدنى المطلق، وأود أن أقول إنه **بالغ الخطورة**، تلقي هجوم سوفييتي على تركيا ورد معاكس من الناتو على الاتحاد السوفييتي. إنه وضع شديد الخطورة. أنا لا أعتقد الآن أننا نستطيع أن نتجنب وضعاً كهذا، إذا ما هاجمنا كوبا، ولكن أعتقد أننا ينبغي أن نبذل كل ما في وسعنا لتجنب ذلك، وأحد طرق تجنبه هو إبطال مفعول الصواريخ التركية قبل أن نهاجم كوبا.. الآن هذا هو تعاقب الأفكار.

جورج بول: أود أن أقول إنه في حال تعطيل الصواريخ التركية التي تنقذكم من الانتقام، فإنها ربما ـ ربما تعني انتقاماً في مكان آخر.

روبرت مكنامارا: أوه، أعتقد أنها لن تُنقذك من الانتقام.

جورج بول: أعتقد أنك في وضع يجعلك تتخلص من صواريخك مقابل لا شيء.

روبرت مكنامارا: حسناً انتظر لحظة. أنا لم أقل إنها تنقذك من انتقام. أنا قلت فقط إنها تقلل من فرص عمل عسكري على تركيا.

جورج بول: حسناً، ما الفائدة التي تجنيها إذا وقع الحدث على برلين، أو أي مكان آخر؟

روبرت مكنامارا: عليك أن تعود إلى اقتراحي القائل إنه إذا لم تكن هناك صواريخ جوبيتر في تركيا ليهاجموها، فإنهم سيستخدمون القوة العسكرية في مكان آخر. أنا ـ أنا لست متأكداً من ذلك[23].

نحن نعرف الآن من عدة مصادر روسية، ومنها ابن نيكيتا خروتشيف، وكاتب سيرته سيرجي خروتشيف أنه في حال هجوم جوي أمريكي على قاعدة أو أكثر من قواعد الصواريخ في كوبا، فإن الاحتمال السوفييتي الأكثر توقعاً هو توجيه ضربة إلى قواعد الصواريخ في تركيا. لقد كان نيكيتا خروتشيف، كشأن كينيدي، يحاول تجنب حرب كارثية، وكان الزعيم السوفييتي يعتقد أن توجيه ضربة إلى تركيا هو الحد الأدنى الذي يستطيع القيام به لإرضاء قادته العسكريين[24]. ولكن هل ستكون ضربة تركيا هي نهاية خط التصعيد، أم أنها ستكون البداية؟ لا أحد يعرف. ولكن هذا النمط من التفكير ـ توقع طرق غير معتمدة وغير مقصودة للدمار ـ يحمينا، كما أعتقد، من لولب التصعيد الذي يقود إلى حرب نووية.

في 27 تشرين الأول / اكتوبر، 1962، عملت جيداً أنا وزملائي مع الرئيس. الأمور قيد الدرس. كان معنا تومي توميسون، الذي يعتنق موقف خروتشيف اعتناقاً كاملاً وكان قادراً على نقله بأمانة إلى الرئيس. وكان كثيرون منا يريدون الحيلولة دون «خطوة ثالثة» غير متعمدة ومدمرة يمكن أن تؤدي إلى الصدام العسكري المباشر الأول في الحرب الباردة بيننا وبين الروس.

كان تفكيرنا خلال أزمة الصواريخ يتناقض مع تلك اللحظة الحرجة الأخرى، في تموز/ يوليو 1965، عندما كان يتناقش الرئيس جونسون مع مستشاريه المقربين حول إرسال وحدات عسكرية قتالية إلى ڤيتنام، وتحويل النزاع هناك، عملياً، إلى حرب أمريكية. هناك مجال واسع من الاختلاف. أعتقد أننا لم نخدم رئيسنا جيداً في ذلك الحين. كتبت في مذكراتي، مسترجعاً صورة الماضي، «عندما أعود إلى الماضي، أشعر أنني أخطأت حقاً لأنني لم أصر بقوة، في ذلك

الحين أو بعد ذلك، سواء في سايغون أو واشنطن، إجراء مداولات ساخنة وحاسمة حول الاقتراحات الفضفاضة، والمسائل التي لم يجر البحث فيها، والتحليلات الدقيقة التي ترسم استراتيجيتنا العسكرية في ڤيتنام»[25].

لماذا هذا الفرق؟ حتى هذا اليوم لم تتأكد لي الإجابة. ولكن بالتأكيد كان لا بد من فعل شيء إزاء الإلحاح الشديد جعلنا نشعر جميعاً بإزالة الصواريخ من كوبا بدون حرب ـ حرب تهدد الولايات المتحدة مباشرة وعلى نحو مدمر ـ في حين أن المناقشات التي جرت في تموز/ يوليو 1965 حول إرسال قوات إلى ڤيتنام لم تكن تتضمن إلاّ القليل بل ربما لا شيء من طريقة التفكير التي جرت في تشرين الأول / أكتوبر 1962. أخفقنا ونحن نسأل الأسئلة الصعبة الضرورية: إذا فعلنا هذا، إذا أرسلنا القوات، ماذا سيفعل الڤيتناميون الشماليون على وجه الدقة؟ والأسئلة المساوية لها في الأهمية، مَن كان لدينا في هذه الغرفة في تلك اللحظة ممن يتحلون بالاعتناق (التفهم) المطلوب لموقف هوشي مينه والجنرال فو نيغوين جياب، والقادة الآخرين في هانوي؟ هل لدينا في الواقع أحد ما هنا قابل هؤلاء الرجال أو تحدث إليهم، أو عاش معهم لفترة من الوقت، كما فعل تومي تومبسون مع خروتشيف؟ لم نفعل ذلك، والأسوأ هو أننا أخفقنا حتى في طرح مثل هذه الأسئلة.

وهكذا تظل المسألة الأساس فيما يبدو لي: كيف نستطيع أن ننهي النزاعات التي تتضمن الحساسية من كارثة غير متعمدة كالتي ميزت المناقشات حول أزمة الصواريخ، ونجعل تلك المناقشات تتكرر على نحو مماثل في أوضاع أطلق عليها «أزمات الحركة البطيئة» ـ مثل ڤيتنام، وكذلك في علاقاتنا مع روسيا والصين في القرن الحادي والعشرين؟»[26].

إن ما نسميه «الحساسية إزاء الحيلولة دون نزاع غير متعمد» يتشابه إلى حد ما مع ما وصفه حديثاً العالم السياسي جون ستاينبرونر Steinbruner من جامعة ميريلاند بأنه تحول من «التهديد المتعمد» إلى «التهديد المنبعث من

عمليات متفرقة ـ التفاعل غير المتوقع للقوى المنتشرة»[27]. ويستخلص: «يبدو من المحتمل أن عملية العولمة سوف تجعل التهديدات المتفرقة غير المقصودة ذات اهتمام بارز أكبر. . كيف يمكن عندئذ أداء الدراما؟ أين يمكن لتحول يحمل طابع التهديد أن يعبر عن نفسه بصورة شديدة الوضوح للعيان؟ . . . الممارسة التي يمكن توقع تطورها بسرعة تكون حيث المشكلة في ذروتها. في بادئ الأمر يعني روسيا. . . كما يعني الصين أيضاً»[28].

ويعتقد ستاينبرونر أننا إذا نجحنا في تعميق الاهتمام بالنزاع غير المتعمد مع روسيا والصين، عندئذ ستكون التصرفات الضرورية لحلها، إن حدثت «مناسَبة لمراجعات أساسية للوضع الأمني». ولكن إخفاقنا في القيام بذلك سيكون، كما يخشى، «مصدراً لمآسٍ شديدة إذا لم تتم هذه المراجعات[29]. وهكذا نعود ثانية إلى السؤال الجوهري عن منع النزاعات بين الدول الكبرى في هذا القرن: هل نستطيع إعادة توجيه أنفسنا بحيث نهتم بالنزاع غير المتعمد، وهل نستطيع أن نفعل ذلك في الوقت المناسب لجذب روسيا والصين من عزلتهما قبل أن تنشب أزمة تهدد بحرب؟

علاقات أمريكا مع روسيا والصين في فترة ما بعد الحرب الباردة

سوف يتضمن النزاع الأشد تدميراً في القرن الحادي والعشرين دولتين عظميين أو أكثر مسلحتين بالأسلحة النووية؛ دولتين قد تجدان أن مصالحهما شديدة التعقيد وغير قابلة للحل، ووضعهما غير ملائم ومعاكس بدرجة كبيرة وغير قابل للتفاوض، بحيث يصبح الخيار الأشد سوءاً عند لحظة حرجة ما، هو الاتجاه نحو الحرب مع الطرف الآخر. إنه لمما يثير الكثير من التعجب، في الوقت الحاضر، أن نوضح سيناريوهات معقولة نرى فيها الولايات المتحدة متورطة في حرب مع أعداء محتملين يمثلون، أو يحتمل أن يمثلوا، قوى عسكرية كبيرة في مجرى القرن الحادي والعشرين. في طليعة المرشحين ـ ربما المرشحون الوحيدون المحتملون في الوقت الحاضر ـ روسيا والصين، منافستا

أمريكا السابقتان في الحرب الباردة. ومع هذا فإن روسيا في وضع مضطرب اقتصادياً ونفسانياً وعسكرياً في حين أن الصين تبقى دون مستوى الولايات المتحدة عسكرياً على كافة المستويات وتواجه قلاقل عميقة تتعلق بمستقبل أنظمتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ويمكن أن يقال الشيء نفسه نسبياً فيما يتعلق بالوضع بين الولايات المتحدة والغرب.

ولكن ما لا يقدَّر على نحو غير ملائم، وخاصة في الولايات المتحدة، هو الأهمية الكامنة لرد فعل في روسيا والصين لما يتصوره كلاهما الانفرادية الأمريكية في فترة ما بعد الحرب الباردة ـ وهو ما أشرنا إليه في الفصل الأول، حسب وصف صامويل هانينغتون، بظاهرة أمريكا أو «قوة عظمى شريرة». والعناصر الأساس لرد فعلهم العام هي: أولاً، نظراً للطريقة التي انتهت إليها الحرب الباردة أصبحت الولايات المتحدة منتصرة ومتعجرفة على نحو متزايد في متابعة سياستها الخارجية، وخاصة نحو روسيا والصين، «الخاسرين» في صراع الحرب الباردة، وثانياً أن العجرفة الأمريكية لا تثير الاستفزاز فحسب، بل هي خطرة أيضاً لأنها تهدد عدداً من المصالح التي تعتبرها روسيا والصين حيوية. والعجرفة الأمريكية في نظرهما، تتجلى بأسوأ صورها في **خيانتها** لكل من روسيا والصين في قضايا حيوية ومثيرة للصراع، خيانات تشير إلى عدم احترام الولايات المتحدة لالتزاماتها الدولية. وتبدو الولايات المتحدة في أعين الروس والصينيين أنها تعتقد نفسها القوة العظمى الوحيدة الباقية، وهي لا تحتاج إلى الالتزام بالقواعد المتفق عليها في السلوك الدولي بين الدول العظمى.

كثير من القضايا المثيرة للنزاع تفصل ما بين الولايات المتحدة والغرب وبين روسيا والصين. فكلتاهما تعارضان بناء دفاع صاروخي أمريكي قومي: روسيا تعارض ذلك لأنه يناقض بنود «معاهدة الدفاع لمنع الصواريخ الباليستية» لسنة 1972 الموقعة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، والصين تعارض لأنها تعتقد أنها تعرّض قوة الردع النووي الضعيفة نسبياً والخاصة بها للخطر.

وتستاء روسيا من الاتهامات الأمريكية والغربية بصدد انتهاكات حقوق الإنسان في الشيشان التي تعتبرها روسيا مسألة داخلية بحتة. كما أن الصين تتخذ الموقف ذاته من انتقادات الغرب لحكمها في التيبيت. كما تعترض الصين بشدة على تجديد اتفاق التحالف الدفاعي الياباني الأمريكي لسنة 1996، الذي تعتبره محاولة لحصار الصين واحتوائها.

في سنة 1997 أكد الوزير لي بينغ بقوة أمام روبرت مكنامارا أثناء زيارة لهذا الأخير للصين أنه في الوقت الذي يفترض فيه مبدئياً أن المعاهدة موجهة ضد الاتحاد السوفييتي، عند نهاية الحرب الباردة، فليس لها من غرض سوى أن تحتوي الصين، وأن تهدِّدها في النهاية. وأيَّد مناقشته بتأكيد أن اليابان، خلافاً لألمانيا، لم تقر أبداً أو تقبل بمسؤوليتها عن دورها في الحرب العالمية الثانية. وحتى هذا اليوم ما تزال غالبية المواطنين اليابانيين تجهل إلى أية درجة ساهمت أعمال بلادهم في إشعال الحرب العالمية الثانية في منطقة المحيط الهادي. وعلى سبيل المثال هم لا يعون أن الطائرات اليابانية سنة 1937، أغارت بدون أي استفزاز من جانبنا، على مدينة شانغهاي. وقد شهد مكنامارا الذي كان يعمل في سفينة تجارية، تدعى الرئيس هوفر، القصف. وادعى لي بينغ ـ ربما بشيء من المبالغة ـ أن اليابان كانت مسؤولة عن وفاة 20 مليون صيني. وقال إنه لاحظ علامات تدل على استمرارية العسكرة في المجتمع الياباني. قال كل هذا بكثير من الحدة والعنف.

ثمة مبرر لتخوف الصين من العسكرة اليابانية. فعلى الرغم من أن الدستور الياباني الذي صاغه الأمريكيون، يحرم على اليابان تطوير قوات «عسكرية»، تستمر أقلية صغيرة ولكنها ذات صوت مسموع في الضغط بغية إيجادها. وفي أيلول/ سبتمبر سنة 2000 ذكر أن محافظ طوكيو دعا 7 آلاف عضو من قوات الدفاع عن النفس إلى تدريبات مشهودة عالية المستوى تتضمن استخدام الطائرات المروحية والدبابات الخفيفة وعربات نقل القوات وطائرات

الهبوط[30]. وقد أثارت تلك التدريبات جدلاً واسعاً في اليابان. وشكك المعادون لإحياء الروح العسكرية في أن الهدف غير المعلن لهذه التمرينات هو إحياء مكانة القوات المسلحة وتحسين إمكانات مراجعة الدستور، بحيث يسمح لليابان أن تكوِّن جيشاً لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية. هذا الحادث أعقبه بعد عدة أشهر تصريح من جانب نائب وزير الدفاع الياباني (الذي أُزيح عن منصبه فيما بعد) يقول إن على الأمة أن تتحرك نحو الحصول على أسلحة نووية، وهو عمل لا يعتبر عدوانياً من جانب الصين وحدها بل من جانب آسيا كلها أيضاً.

القضايا الاقتصادية هي بدورها مستمرة: فروسيا مستاءة تجاه ما تسميه برنامج المساعدة «الضئيل جداً والمتأخر جداً» من جانب المؤسسات التي تسيطر عليها الولايات المتحدة مثل «البنك الدولي»، و«صندوق النقد الدولي»، والصين مستاءة من العقوبات الاقتصادية المختلفة بسبب ما تعتبره الولايات المتحدة انتهاكات غير مقبولة لحقوق الإنسان في الصين، وسياسات التصدير غير المقبولة للأسلحة الصينية.

إن قوائم الشكاوى الروسية والصينية طويلة، وامتعاضهما في بعض الحالات شديد ـ وهو ما يفضي إلى التساؤل عما إذا كان لهذا الامتعاض ما يبرره. وهدفنا هنا هو محاولة «حل» جميع هذه القضايا، وكذلك الغوص بعمق قدر الإمكان في حيِّز ضيِّق داخل المفاهيم الفكرية للروس والصينيين التي تحتوي على هذا الاستياء من الولايات المتحدة. ونحن على قناعة بأن هذا الاستياء استياء حقيقي ومتزايد. فمن الملاحظ من عدة وجوه في فترة عقد من الزمن منذ انتهاء الحرب الباردة، أن العلاقات الأمريكية مع روسيا والصين قد تدنت من مرتبة التفاؤل الأولي إلى وضعها المتوتر الحالي الذي يصل أحياناً إلى درجة بالغة الشدة. قد يكون من المبالغة القول إننا وسط حرب باردة جديدة مع كل من البلدين. ولكننا نعتقد أن الرئيس بوريس يلتسين لم يبالغ عندما حذر في

كانون الأول / ديسمبر 1994 من تدهور سريع نحو «سلام بارد» ناجم، كما قال، عن محاولات الولايات المتحدة والغرب لـ «دفن الديمقراطية في روسيا»[31]. وكما نرى فإن «السلام البارد» الذي يتنبأ به يلتسين في أواخر سنة 1994 قد وصلنا إليه الآن.

سوف نركز في دراسات موجزة للحالة على قضيتين: رد فعل روسيا على قرار الولايات المتحدة بتوسيع منظمة حلف شمال الأطلسي (ناتو ـ NATO)، ورد فعل الصين على ما اعتبرته تحولاً في السياسة الأمريكية نحو تايوان، من سياسة «صين واحدة» التي استُهلت في عهد إدارة نيكسون إلى سياسة تفضيل استقلال الجزيرة. نركز على هاتين المسألتين لأربعة أسباب يتصل بعضها ببعض:

- «العجرفة الأمريكية». كل قضية تبدو لموسكو وبكين تمثل الرفض المتعجرف للولايات المتحدة في منح وضع «دولة كبرى» إلى أي بلد سوى الولايات المتحدة نفسها.
- «الخيانة الأمريكية». يفسر كل من الروس والصينيين التصرفات الأمريكية على أنها أعمال تضليلية ترمي إلى التهرب من تعهدات والتزامات أمريكية سابقة.
- «التهديد الأمريكي». هذه الأضاليل الظاهرية تهدد شرعية وأمن حكومتي موسكو وبكين.
- «الوميض الأمريكي». كل قضية يمكن أن تصبح «نقطة وميض» بحيث تنفجر العلاقات الجارية النزقة في صورة أزمة خطيرة. والحق أن كل قضية كانت قريبة من هذا الوضع في المدة الأخيرة.

ونكرر القول إننا لا نتفق بالضرورة مع تقديرات الروس والصينيين. والحق أننا لا نعتقد أن دقتهم ـ إذا كانوا يفهمون الدوافع الأمريكية الحقيقية ـ

ينبغي أن تكون القضية الأساس للمطلعين على السياسة الخارجية، ولصانعي السياسة الخارجية الغربية أنفسهم. والأهم من ذلك في رأينا هو أن روسيا والصين تريان الولايات المتحدة، والدول الغربية الأخرى بدرجة أقل، وكأنها تحشرها في زاوية فيما يتعلق بهذه القضايا، وهذا سيرفع لا من وتيرة خطر المواجهة الإقليمية فحسب، بل إلى درجة الصدام العسكري الذي لن يكون في مصلحة أي بلد من البلدان المعنية. فمثل هذا الصدام سيكون بالتأكيد كارثة لجميع الأطراف.

يبين جون ستاينبرونر Steinbruner في كتابه الجديد «مبادئ الأمن العالمي» أن ما نحتاجه لتقليص خطر نزاع بين الدول الكبرى من هذا النوع سوف يتطلب تعديلاً واسع النطاق في طريقة فهم المسؤولين الأمريكيين للأمن الدولي في عالم ما بعد الحرب الباردة. وهو يعتقد أن ما نحتاج إليه هو «تحول مفهوميّ من الردع إلى إعادة الطمأنة» باعتبارها مهمة «تعيد تصميم جوهر العلاقة الأمنية» بين الولايات المتحدة وكل من روسيا والصين. ووفقاً لستاينبرونر فإن «الحقيقة القاسية أن روسيا لا تستطيع أن تتعايش مع وضعها، لذا فلا أحد آخر يستطيع ذلك». ويضيف أن «الصين تمثل نموذجاً آخر من المشكلة ذاتها.. ذات أهمية مماثلة»[32].

هذا هو الاقتراح المركزي بالمطلق، الابتداء بالحكمة للحيلولة دون نزاع بين الدول الكبرى في القرن الحادي والعشرين: إذا كانت روسيا تشعر بشدة أنها مهدَّدة من جراء توسيع «الناتو» باتجاه حدودها الغربية، وإذا كانت الصين تشعر على نحو مشابه بأنها مهدَّدة بما تعتقد أنه الدعم الأمريكي المتنامي لاستقلال تايوان وإعادة تسليح اليابان، **فإن الولايات المتحدة وحلفاءها، ومنهم اليابان، سوف تشعر عندئذٍ على نحو مشابه بأنها مهدَّدة**. ويجب أن نعترف أن الدول الكبرى إذا أقدمت على الحرب في القرن الحادي والعشرين، فمن المحتمل أن تختفي جميع الأمم. ولهذا ترانا نؤكد أولوية تفهم وجهات نظر الروس

والصينيين، بدلاً من مشاحنتهم أو إلقاء المحاضرات عليهم. إن أونصة واحدة من الاعتناق وتوقع الوسائل غير المتعمدة للنزاع تساوي زنة باوند من الجدل، وزنة طن من «الردع» التقليدي.

«خداع» روسيا: توسيع الناتو

في 12 آذار / مارس من سنة 1999، استقبلت وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت وزراء خارجية كل من بولونيا وهنغاريا وجمهورية التشيك في مكتبة هاري ترومان في ولاية ميسوري. وكانت المناسبة القبول الرسمي لهذه البلدان الثلاثة، الأعضاء السابقين في حلف وارسو، في تحالف حلف الناتو، وهو ما يمثل ذروة القرارات التي اتخذتها إدارة كلينتون بدءاً من نهاية 1994. ووفقاً لما ذكره ستروب تالبوت نائب وزيرة الخارجية، ومنسق السياسة الروسية في إدارة كلينتون، فإن حماية الناتو وتوسيعه كانا أمراً مطلوباً لتوفير «وسائل الردع، أو إذا اقتضت الضرورة ردع التهديدات لأمننا المشترك» وكذلك لتزويد دول ديمقراطية متحررة حديثاً... بالأمن الذي يوفره الحلف»[33].

أما النظرة الروسية فهي مختلفة تماماً. فالروس يرون أن توسع الناتو هو جزء من عقيدة أمريكا لفترة ما بعد الحرب الباردة الخاصة بالاحتواء الجديد، الرامية إلى محاصرة روسيا وتحييدها ضمن نطاق نفوذها الأوروبي التقليدي. وأي دبلوماسي روسي يستطيع أن يتحدث عن الأضاليل الأمريكية المزعومة التي ترمي إلى توسيع الناتو. في سنتي 1989 ـ 1990، على سبيل المثال كانت الحكومة السوفييتية تعتقد أن الولايات المتحدة قد تعهدت بألاّ توسع الناتو شرقاً أبداً إذا كانت موسكو ستوافق على إعادة توحيد ألمانيا. وينقل إلينا مايكل بيتشلوس Beschloss وستروب تالبوت في كتابهما «على أعلى المستويات: القصة الموثوقة لنهاية الحرب الباردة» المحادثة التالية في 9 شباط/ فبراير 1999، بين الزعيم السوفييتي ميخائيل غورباتشيف ووزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر:

كان وزير الخارجية يعرف أن غورباتشيف وزملاءه قلقون بالدرجة الأولى بسبب تكرار طموح ألمانيا التاريخي في ضم أراضيها الشرقية إليها. وسأل بيكر غورباتشيف: «هل تفضل أن ترى ألمانيا موحدة خارج «الناتو»، وبدون قوات أمريكية على أراضيها، وربما مع أسلحتها النووية؟ أم أنك تفضل ألمانيا موحدة مرتبطة بالناتو، مع ضمانات بأن ولاية الناتو لن تمتد إنشاً واحداً شرق موقعها الحالي؟».

أجاب غورباتشيف: «من المؤكد أن أيّ توسع لأراضي الناتو سيكون أمراً غير مقبول». وتحدث عن المخاوف الروسية العميقة من الألمان. وأثر النازيين، ومقتل عشرات ملايين السوفييت. واستنتج بيكر من هذا أن غورباتشيف قد يكون راغباً في الموافقة على ألمانيا موحدة عضواً في الناتو إذا استثنيت أراضي ألمانيا الشرقية السابقة من انتشار قوات الناتو ومناوراتها[34].

قال بيكر «ولا إنشاً واحداً باتجاه الشرق». هل أساء غورباتشيف فهمه؟ ربما. ولكن التفسير الروسي كان ولا يزال أن الولايات المتحدة تعهدت بعدم توسيع الناتو حتى بالانتشار في أراضي ألمانيا الشرقية السابقة[35]. وهكذا اعتبر قرار «توسيع» الناتو خديعة أمريكية، من النوع الذي يهدِّد المصالح الروسية مباشرة.

كتب سيرغي روغوف، المدير السابق لمعهد روسيا الخاص بشؤون الولايات المتحدة وكندا، حول قرار توسيع الناتو: «من الصعوبة بمكان عدم تفسير هذه الخطوة على أنها تعبير عن التشكّك الغربي العميق حول التطورات المستقبلية في روسيا ونوع من الاحتواء المؤجل، احتواء في صورة مختلفة»[36]. وشارك كثير من الأمريكيين روغوف في تقييمه للوضع. فعلى سبيل المثال كتب المحرر تشارلز كراوثامير Krauthammer في ربيع سنة 1998: «هل توسيع الناتو موجّه نحو روسيا؟ إنه كذلك بالطبع»[37]. وأثناء مداولات الكونغرس سنة 1998 حول توسيع الناتو ألقى السيناتور بامبرز من ولاية

أركنساس، وهو مؤيد مثالي لمبادرات إدارة كلينتون في السياسة الخارجية، خطاباً انتقد فيه التوسع. «سيكون الروس سذجاً لدرجة تفوق الخيال ولا تصدق إذا لم يعتقدوا أن... توسيع الناتو مصمم لتطويق روسيا داخل حدودها»[38]. وانضمَّت نيويورك تايمز إلى الجوقة الانتقادية عند نهاية المداولات مؤكدة في إحدى افتتاحياتها: «إنه لأمر مُضلل الاعتقاد أن توسيع الناتو ليس في جوهره عملاً تعتبره روسيا تصرفاً معادياً»[39].

وبدأ الفصل الانتقادي التالي للخديعة في أيار/ مايو 1997، مع التوقيع في باريس على «الصك التأسيسي» للتعاون بين روسيا والغرب، الذي سعت روسيا فيه للحصول على التزام خطي بأن الناتو سوف:

- يحدّ من توسيع إمكاناته العسكرية حتى مع نمو عدد أعضائه.
- التنصل من أي نيّة لاستخدام القوة ضد أي دولة إلاّ في حالة الدفاع عن النفس أو أن تكون مخولة من مجلس الأمن الدولي.
- ضمان دور لروسيا في اتخاذ القرار السياسي داخل الناتو.

حققت روسيا الهدفين الأولين ولكنها أخفقت في تحقيق الثالث[40]. وكانت النتيجة، من وجهة نظر الروس، خديعة أخرى في آذار/ مارس 1999، عندما بدأ الناتو حملة القصف على الحكومة الصربية في بلغراد، في محاولة لإرغام الصرب على وقف التطهير العرقي لألبان كوسوفو. وقد صُوِّر هذا التدخل في الغرب على أنه محاولة لتجنب كارثة إنسانية تسبَّبت بها السياسات العنصرية والفاشية للزعيم الصربي سلوبودان ميلوسيفيتش. أما من وجهة نظر الروس فقد كان تدخل الناتو، أولاً، انتهاكاً، ويعود ذلك جزئياً إلى أنه كان موجهاً إلى أصدقائهم السلاف، الصربيين، والأهم من ذلك أنه ينتهك على نحو فاضح التزام «الصك التأسيسي» الذي يتضمن امتناع كل من الناتو وروسيا «عن تهديد أو استخدام القوة من جانب أحدهما على الآخر، وكذلك على أية دولة أخرى، وانتهاك استقلالها ووحدة أراضيها واستقلالها السياسي بأية طريقة لا

تتفق مع ميثاق الأمم المتحدة»[41]. وكما كتب سيليست ولاندر من جامعة هارفرد المختص بشؤون روسيا: «كوسوفو هي شيء أهم من صربيا بل وأهم من الناتو. إن كوسوفو، تعني لروسيا، إدارة مشكلات الأمن في فترة ما بعد الحرب الباردة، ومن ذلك النزاعات العرقية، التي تتعلق بالأراضي، التي تهدد حدودها وأراضيها[42].

ولكن كوسوفو من وجهة نظر الروس كانت موضوعاً لا يثير المخاوف فحسب. فهم كانوا يراقبون مكتوفي الأيدي كيف كان الناتو يدير حرباً جوية ذات تكنولوجيا عالية على الصرب، الذين بدوا ظاهرياً في حصانة من أي دفاع يقومون بحشد أسلحتهم الروسية العتيقة الطراز. وكان أول انطباع عن نجاح الناتو قد أوضحه وزير الدفاع الروسي إيغور سيرغييف، في أعقاب مناورات روسية جرت في حزيران/ يونيو 1999، تمثل أو تحاكي هجوماً يقوم به «الناتو» على منطقة «كالينينغراد أوبلاست»، مستخدمة فقط الأسلحة التقليدية. قال في تعليقه على المناورات التدريبية: «إن روسيا قادرة على الدفاع عن نفسها باستخدام الأسلحة النووية فقط»[43]. وهذا ما قاد الزعيم الروسي فلاديمير بوتين إلى أن يُقر في سنة 2000 ما أسماه «مفهوم روسيا الجديد للأمن»، مكرراً سياسة بلاده الثابتة «بعدم استخدام السلاح النووي أولاً» ومؤكداً بقوة أن مثل هذا الاستخدام المبكر لمثل هذا السلاح لن يكون إلاّ إذا هوجمت روسيا على سبيل الافتراض من قبل قوات الناتو[44]. وبعد ذلك أقر بوتين خطة تمتد 15 سنة لتحديث الأسلحة الروسية التقليدية، مع تقليص الترسانة النووية الاستراتيجية إلى ما يقارب 1500 رأس حربي[45]. وترسم سيليست ولاندر خط القاعدة فتقول: «إن درس كوسوفو يعني لروسيا أن القوة هي الأساس» ومن ضمن ذلك القوة العسكرية النووية والتقليدية.

هذا ما وصل الأمر إليه: فالناتو بتنكّره (كما يرى الروس) لالتزاماته دفع روسيا إلى القبول بما يمكن أن يعتبر أخطر ظاهرة في استراتيجية الناتو

التقليدية أثناء الحرب الباردة وهي: **الاستخدام النووي الأول** المحتمل. والأخطر من ذلك أن الحرب في كوسوڤو قد أقنعت كثيراً من الروس على نحو بيِّن أنهم قد يكونون الهدف التالي ـ أي إن الناتو سوف يستمر في استعراض عضلاته أينما وحيثما يرى ذلك مناسباً، وربما حتى في الشيشان، حيث روسيا متورطة بحرب طويلة مع الثوار الشيشانيين الذين يسعون إلى الانفصال عن روسيا. وكما قال مسؤول عسكري روسي: «الناتو ينتشر في كل أوروبا»[46].

وقد جرت حديثاً مقابلة بين الرئيس بوتين وثلاثة من الصحفيين الروس لمعرفة رأيه إزاء خطورة توسع الناتو في دول حلف وارسو السابقة:

سؤال: ما هو الخطأ في علاقتنا مع حلف الناتو؟

بوتين: لا نشعر أننا شركاء على قدم المساواة من القوة في هذه العملية. إذا توفرت لنا مشاركة كاملة في اتخاذ القرار عندئذٍ فإن الأمور لن تكون سيئة جداً.

سؤال: لماذا.. هل لأن روسيا ضعيفة لا تستطيع أن تفعل شيئاً؟

بوتين: هذا غير صحيح. حتى في وضعها الحالي تستطيع روسيا أن تفعل الكثير. كان علينا أن نحلِّل الموقف في وقت أبكر ـ قبل قصف يوغوسلافيا ـ لنرى كيف يمكن أن نؤثر على قرار شركائنا. كان بوسعنا أن نعمل بصورة أكثر فعالية مع الدول التي لا توافق على تغيير مجرى الأحداث.

سؤال: قالوا إن كوسوڤو ستبقى ضمن يوغوسلافيا، ومع هذا فقد جلبوا قوات.

بوتين: لهذا السبب نحن لا نوافق على أية خيارات مثل كوسوڤو. لا شيء يشبه أحداث كوسوڤو يمكن أن يحدث. ولن يحدث أبداً. كل شيء حققه حلفاء «الناتو» واقعياً في كوسوڤو يتناقض مباشرة مع الأهداف التي أوجدها «الناتو» لنفسه.

سؤال: تقول «نحن لا نوافق». هل قدموا حقاً الكثير من العروض؟

بوتين: دعنا نقول إنه قُدم إلينا وسطاء للمساعدة على حل النزاع في الشيشان. نحن لا نحتاج إلى أي وسطاء. فهذه أول خطوة نحو تدويل النزاع - يأتي الوسطاء أولاً، ثم يأتي شخص ما بعدهم، ثم يأتي المراقبون، ثم المراقبون العسكريون، ثم وحدات طوارئ محدودة. ونسير في هذا الطريق...

سؤال: إذن هل ينبغي إعادة النظر في الانضمام إلى الناتو؟

بوتين: بوسعنا أن ننظر في الأمر، ولكن ليس الآن. المسألة هي **أي نوع** من الناتو نحن نتحدث عنه. إذا كنا نتحدث عن الناتو الذي عمل في كوسوفو بانتهاك مباشر لقرارات الأمم المتحدة، فهذا ليس موضع مجرد اهتمام نظري يمكن أن يناقش من جانبنا. أما إذا كنا نتحدث عن تحول جدي لهذه الكتلة إلى منظمة سياسية مستعدة لأعمال مشتركة بناءة مع روسيا عندئذ يكون هناك موضوع يمكن مناقشته.

والخلاصة، أنا لا أرى أي سبب يحول دون عدم تطور التعاون بين روسيا و«الناتو» إلى أبعد من ذلك؛ ولكنني أكرِّر أن هذا يمكن أن يحدث إذا عوملت روسيا كشريك متساوٍ فحسب[47].

يبدو لنا أن ثمة اتجاهين متناقضين واضحين إلى حد ما في آراء بوتين. فأولاً، هو لا يزال معتقداً، كما قال مراراً، أن مكان روسيا هو أنها «جزء من الغرب»، ولكن ثانياً هو أيضاً قومي روسي متحمس، يشبه تقريباً المثال الذي حدده ايشيعيا برلين؛ أيْ روسيٌّ في «وضع غاضب» تعرَّض «لإذلال قومي»[48]. مثل هؤلاء الأشخاص الذين أشار إليهم برلين قادرون أحياناً على القيام بأفعال متطرفة يعتقدون أنها ستكسبهم الاحترام الذي يستحقونه.

وقال سيرغي روغوف حديثاً إن هذا التاريخ من الخديعة دفع مؤسسة

السياسة الخارجية الروسية إلى البدء في التفكير ملياً، لأول مرة منذ نهاية الحرب الباردة، «بانقسام جيوسياسي جديد للعالم. . . بين الغرب من جهة وبين روسيا والصين والهند من جهة أخرى» ـ أي حرب باردة جديدة[49]. وهذا يشبه تقريباً ما كان أسماه صاموئيل هانتينغتون بـ «الغرب ضد البقية»[50]. ثمة فارق جوهري بين جذور مثل هذه الحرب الباردة الجديدة، إذا ما وقعت، وبين نوع «الصدام» الذي يتصوره هانتينغتون. فقد تنبأ هانتينغتون بـ «صدام الحضارات» على سبيل المثال، الحضارة اليهودية المسيحية الغربية في مواجهة الأصولية الإسلامية، وهي ما قُدمت في الغرب على نحو زائف على أنها مجموعة عدوانية معادية للغرب. ولكن في المقابل يشير روغوف إلى أن سهم الاتهام سوف ينطلق نحو الاتجاه المعاكس. فبحشرها قوى كبرى أخرى كروسيا والصين في زاوية في قضايا أساسية وبمحاولة إنكار عضويتهما في نادي القوى الكبرى، فإن الولايات المتحدة يمكن أن تدفع هذه الدول إلى التحالف فيما بينها كي تجابه ما تعتبره دوافع أمريكية للهيمنة. والأكثر من ذلك أن الانشقاق لن يكون بسبب توجهات «ثقافية» بالدرجة الأولى. إنه ببساطة سيكون أداة، حسب تعبير برلين، لجعل الدول المستقلة «المُهانة» ذات «الوضع الضعيف» تعاود الحرب الباردة لأسباب غير إيديولوجية. وستكون الولايات المتحدة نفسها هي موضع الملامة بالدرجة الأولى.

كتب جاك ف. ماتلوك Matlock الابن، وهو سفير أمريكي سابق لدى الاتحاد السوفييتي، منذ عهد قريب أن الكثير من الصعوبات مع روسيا ناجمة عن قصر نظر أمريكي تاريخي، وعن عدم قدرتنا وتقديرنا لأهمية حقيقة أن «الحرب الباردة التي كسبناها كانت على الاتحاد السوفييتي وليست على روسيا»[51]. لهذا السبب بالذات وصف جورج كينان توسيع الناتو «بالخطأ القاتل للسياسة الأمريكية في كل مرحلة ما بعد الحرب الباردة»[52]. وما كان يُقلق كينان عملياً، ويقلقنا، هو تشديد الولايات المتحدة على الناتو، على الدور العسكري في علاقاته مع حلفائه الأوروبيين وروسيا. ووفقاً لتقدير كينان

فإن هذا الاهتمام الخاص بالناتو، وتوسيعه، في غياب حرب إيديولوجية باردة، يبدو وكأنه يشير إلى أن الولايات المتحدة والغرب يتغافلان عن النتيجة المحتملة. «إضافة طقوس جديدة من الدمار العسكري تضاف إلى تلك التي ما تزال راسخة في أوروبا في أذهان كثير من الأحياء حتى اليوم»[53]. إن معاملة روسيا الجديدة بطريقة مماثلة تقريباً للطريقة التي كان يُعامل بها الاتحاد السوفييتي ـ يعطي الروس الانطباع بأنهم يحاصَرون ويجري «احتواؤهم» مرة أخرى بالقدرة العسكرية لغرب متفوّق عسكرياً، كما يقول كينان، «سيكون ذا نتيجة انتحارية»[54].

«خداع» الصين: وضع تايوان

منذ الانفتاح على الصين سنة 1972 في عهد إدارة نيكسون، كان الموقف الرسمي الأمريكي تجاه تايوان موقفاً يوصف بـ «الغموض الاستراتيجي». ووفقاً لهذه السياسة تعترف الولايات المتحدة «بصين موحدة» عاصمتها بكين، حين تضم تايوان. وفي الوقت نفسه تزود الولايات المتحدة حكومة تايبه المنتخبة ديمقراطياً (الآن) والتي تعتبر نفسها مستقلة (أحياناً) بالعتاد العسكري والدعم السياسي، في محاولة لرد بكين عن محاولة غزو الجزيرة بالقوة. وتأمل واشنطن من جراء ذلك أن تؤخر إلى وقت غير محدد الحل النهائي لسياستها المتناقضة، التي تعتبرها تمثل حقيقة تايوان ـ هذه البقية المتنازع عليها من الحرب الأهلية الصينية التي لم تحل نهائياً بين شيوعيي ماوتسه تونغ وقوميي تشيانغ كاي تشيك، وهي حرب بدأت قبل الحرب العالمية الثانية.

ومع هذا فإن الشعور بالخديعة الأمريكية في بكين فيما يتعلق بقضية تايوان المركزية ما يزال قوياً ومتنامياً. فهو ينجم عن الإخفاق الأمريكي (على الأقل في أعين الصينيين) في التمسك بسياسة «صين واحدة» التي وافقت عليها سنة 1972. والحق أن بكين تعتقد أن الولايات المتحدة، من طريق مبيعات الأسلحة وتقديم المشورة العسكرية، تسعى بدلاً من ذلك إلى جعل الجزيرة

قلعة منيعة، وبهذه الطريقة تُجبر بكين على القبول بحقيقة وجود «صينين» في النهاية. ويستشهد الرسميون الصينيون باستمرار الحضور الأمريكي في شرق آسيا بوصفه دليلاً على صحة وجهة نظرهم إزاء الدوافع الأمريكية. ومما يقلق الصينيين بوجه خاص تجديد معاهدة التحالف الأمني الأمريكي ـ الياباني الموقعة سنة 1996، التي يعتبرها الصينيون موجهة مباشرة وبالدرجة الأولى إليهم، وبخاصة إلى جهودهم الرامية إلى إعادة الوحدة مع تايوان. وبهذه الطريقة فإن مشاعر بكين تجاه الخديعة الأمريكية في قضية تايوان قد ولّد شكوكاً متزايدة بأن الولايات المتحدة ترمي إلى «الهيمنة» في شرق آسيا. وفيما يبقى الوضع متوتراً بصورة متقطعة فإن حكومة تايبه وبكين وواشنطن قد تراجعت، حتى الآن على الأقل، في اللحظات الحرجة.

ولكن يعتقد كثيرون أن يوم تصفية الحساب بشأن تايوان آت. فحكومة بكين تهدِّد على نحو متزايد بالتدخل عسكرياً إذا اختارت تايبه وسكانها الذين يزيدون على 20 مليوناً الاستقلال. فمرة كل أربع سنوات، أثناء انتخابات تايوان الرئاسية، يقوم بعض المرشحين بتقديم تعهدات للناخبين بالانتقال نحو الاستقلال الكامل الذي تقول بكين إنها لن تسمح به أبداً. أما الولايات المتحدة فكعادتها تقف في منتصف الطريق. فهي تسعى إلى علاقات أفضل مع الصين التي تزداد ازدهاراً وقوة، ولكنها تظل ملتزمة بحماية تايوان عسكرياً إذا حاولت بكين غزو الجزيرة بالقوة. ويؤكد أحد المحللين أن قضية انضمام تايوان هي أخطر القضايا القانونية في مسألة بقاء الحرب الباردة[55]. إنه وضع خطير جداً.

في السنوات الأخيرة انفجر هذا الخطر الخفي المستمر مرتين في أزمتين. فبكين تعتقد أن الخديعة الأمريكية بدأت في مستهل سنة 1995 عندما أجازت إدارة كلينتون، بضغط من الكونغرس، زيارة الرئيس لي تينغ هيو، رئيس تايوان، إلى الولايات المتحدة، بصورة «غير رسمية» ظاهرياً بحجة الالتحاق

بجامعة كورنيل. ولكن «لي» كان قد أثار سابقاً حرباً كلامية بين تايبه وبكين بأنْ دافع صراحة عن رغبة تايبه بالانفصال، وبإثارته حملة لإعادة تايوان إلى الأمم المتحدة، حيث كانت بكين قد حلَّت محلها سنة 1971. وفي ردّ انتقامي قامت الحكومة الصينية باستعراض عضلاتها في فورة الانتخابات في تايوان سنة 1996 بإطلاق ثلاثة صواريخ متوسطة المدى من نوع «م ـ 11» على ما أسمته مناطق مستهدفة في ممرات تايوان. وسقطت قريباً جداً من ميناءين كبيرين لتايوان هما ميناء كيلونغ وكاوشونغ وذلك لإعاقة الملاحة. ثم قام الصينيون بتوسيع تمريناتهم العسكرية في المنطقة، محاكية نوع المناورات المطلوبة لغزو الجزيرة[56]. وردت الولايات المتحدة بنشر حاملتي طائرات بالقرب من المكان لتحذير بكين من تعميق الأزمة.

في المذكرات الأخيرة لوزير الدفاع الأمريكي السابق وليام بيري كتب يقول: «في مراجعة للذاكرة يبدو من الواضح أن مسؤولي الحكومة الصينية قد أساؤوا فهم الجدية التي كانت تنظر بها الولايات المتحدة إلى الأعمال العسكرية غير التحريضية تجاه تايوان. وانتشار «حاملة الطائرات القتالية» CBG حدَّ من سوء الفهم ذاك»[57]. والحق أن الصينيين لم يعتبروا أبداً أعمالهم غير تحريضية. فقد كانوا ينظرون إليها على أنها مطلوبة بسبب التصريحات الحادة والجرأة في الكلام الخطابي الذي يسبق الانتخابات من جانب المرشحين الرئاسيين في تايوان الذين يحرضون على إعلان الاستقلال الكامل عن بكين. ومن المتوقع أن الصينيين عندئذ اعتبروا انتشار حاملة الطائرات الحربية القتالية استفزازاً. وقد رد رئيس الوزراء لي بينغ بتذكير الأمريكيين أنه «عن طريق النيران المكثفة للمدفعية والصواريخ الموجهة يستطيع «جيش التحرير الشعبي» أن يدفن التدخل عنوة ببحر من النيران»[58]. وانتهت المواجهة إلى التحفظ والابتعاد. فقد أظهرت الولايات المتحدة إرادتها في استخدام القوة لحماية تايوان من اقتحامها بالقوة. فيما أوضحت الصين أن أية حركة إضافية نحو استقلال تايوان

سوف تعتبرها بكين عملاً من أعمال الحرب من جانب كل من تايوان والولايات المتحدة.

بعد الأزمة رفضت حكومة بكين بشدة التخلي عن استخدام القوة، إذا لم يتحقق، في وقت ما في المستقبل، تقدم نحو إعادة الوحدة بين تايوان والصين الأم[59]. وأكدت بكين كلامها الخطابي بالتركيز على تطورها العسكري وبذل الجهود في بناء القدرة على إخضاع تايوان عسكرياً. وكما أشار بيري، بعد أزمة 1995 ـ 1996، «كان من الواضح أن جيش التحرير الشعبي يشارك الحكومة الصينية في الاهتمام الكامل بقضية تايوان... وأن الحكومة توجّه الآن نحو إصلاح جيش التحرير الشعبي PLA وتطوير برامجه»[60]. أما تايوان فقد احتلت المكان الثاني بعد السعودية طوال التسعينيات بوصفها أكبر متلق للعتاد العسكري الأجنبي ـ ما يعادل تقريباً 12 بليون دولار، معظمها من الولايات المتحدة، تتضمن مجموعة ضخمة من الصواريخ، والدبابات، والطائرات الحربية، وأنظمة الكومبيوترات المتطورة التي تربط ما بين أنظمة جميع هذه الأسلحة. وفي بكين بدا أن العسكريين التايوانيين ومستشاريهم الأمريكيين مستعدون لنوع من الحرب الجوية ذات التكنولوجية العالية التي ميَّزت حرب الخليج سنة 1991 وحرب البلقان سنة 1999[61].

لقد خلقت استعدادات التصعيد العسكري لدى كلا الجانبين الستارة الخلفية لانفجار الغضب الأخير بشأن تايوان. فقد هدَّد الرئيس التايواني لي تينغ هيوي في تموز/ يوليو 1999 بأن تُقدِم تايوان من جانب واحد على التخلي عن مبدأ «صين واحدة». وهذا ما فُسِّر في بكين على أنه إعلان واضح عن الرغبة التايوانية في الانفصال[62]. إنه التصعيد اللفظي مرة أخرى مع اقتراب الانتخابات الرئاسية في تايوان في آذار / مارس 2000. وفي الحادي والعشرين من شباط / فبراير نشرت بكين وثيقة سياسية تحت عنوان «مبدأ الصين الواحدة والقضية التايوانية». وكان أهم ما فيها: أن هذا التأخير غير المحدد في

مفاوضات جدية تؤدي إلى عودة كاملة لانضمام تايوان إلى الصين الأم سوف يُفضي إلى هجوم عسكري على الجزيرة[63]. ومع اقتراب موعد الانتخابات صعّدت بكين خطابها اللفظي أبعد من ذلك، وخاصة على الذي ربح في النهاية وهو تشين تشوبين، مرشح الحزب التقدمي الديمقراطي، الذي أيد في الماضي الاستقلال الكامل.

وعشية الانتخابات حذر رئيس الوزراء الصيني زهو رونجي التايوانيين الذين يؤيدون الاستقلال عن بكين بأن «نهايتهم ستكون وخيمة»[64]. وفي هذا الوقت اتخذ زهو خطوة غير معتادة في التحدث تفصيلاً عن أن الصين لا تخشى حرباً مع تايوان والولايات المتحدة. وقال موجهاً كلامه إلى أولئك الذين يعتقدون أن الصين تخشى المبادرة إلى نزاع مع الولايات المتحدة «إنهم لا يعرفون تاريخ الصين وأن الشعب الصيني سوف يهدر دمه في سبيل الدفاع عن وحدة الأمة الصينية». وأضاف: «ينبغي أن نكون واثقين أن مواطنينا التايوانيين سيتخذون الخيار العاقل». وأضاف: «ولكن إذا فعلوا ذلك فإنهم قد لا يحصلون على فرصة أخرى»[65]. وفي الوقت الذي لم تتصاعد فيه هذه الأزمة إلى حد إطلاق الصواريخ أو نشر حاملات الوحدات القتالية، فقد أُخذت في أوروبا على محمل الجد أكثر من أزمة 1996. وقلق المسؤولون البريطانيون والفرنسيون على نحو خاص من مواجهة قرار صعب إذا ما نشبت الحرب، قرار يتعلق بإرسال أو عدم إرسال قواتهم لمساعدة الولايات المتحدة في تايوان[66].

لماذا كل هذا الذي جرى؟ لماذا تعتقد بكين، وفقاً لما قاله لي داويو، سفيرها السابق في الولايات المتحدة أن «تايوان أكثر القضايا أهمية وحساسية في العلاقات الصينية الأمريكية؟»[67] لماذا تعتبر قضية تايوان، كما كتب جون ستاينبرونر Steinbruner «حدثاً استراتيجياً كبيراً يتوقع الحدوث؟»[68]. لماذا يصبح هذا الأثر من آثار الحرب الباردة نقطة اشتعال محتملة لنزاع بين دولتين كبيرتين في القرن الحادي والعشرين؟

إن وجهة نظر بكين إزاء مشكلة تايوان تماثل تصور روسيا عن توسيع حلف «الناتو». فبكين تعتقد أن السياسة الأمريكية منذ 1995 تمثل خديعة ـ تراجع وحيد الجانب عن التعهدات والالتزامات الأمريكية المكتوبة على مدى ثلاثة عقود. وتعتقد أن حجتها قوية. ونطرح هنا عدة مقاطع من «بيان شنغهاي» الذي صدر في 27 شباط/ فبراير، 1972 والذي يتضمن الزيارة المهمة للرئيس نيكسون إلى الصين، ووضع القواعد الأساسية للعلاقات الأمريكية الصينية منذ ذلك الحين:

يعلن الصينيون:

يعيد الجانب الصيني تأكيد موقفه وهو أن قضية تايوان هي القضية الحاسمة التي تعيق تطبيع العلاقات بين الصين والولايات المتحدة؛ وحكومة الصين الشعبية هي الحكومة الشرعية الوحيدة للصين؛ وتايوان هي مقاطعة من الصين تؤول منذ زمن بعيد إلى الأرض الأم... وتعارض الحكومة الصينية بشدة أية نشاطات تهدف إلى خلق: «صين واحدة، وتايوان واحدة»، أو «صين واحدة وحكومتين»، أو «صينين» و«تايوان مستقلة»، أو مساندة «تأجيل تقرير وضع تايوان».

وتعلن الولايات المتحدة:

تعترف الولايات المتحدة أن جميع الصينيين على جانبي ممر تايوان هم صين واحدة وأن تايوان هي جزء من الصين، والحكومة الأمريكية لا تعترض على ذلك الموقف. وهي تؤكد اهتمامها بتسوية سلمية لمسألة تايوان عن طريق الصينيين أنفسهم. وهي تؤكد، واضعة نصب عينيها هذا الأمل، هدف انسحاب جميع القوات الأمريكية والمؤسسات العسكرية من تايوان[69].

المعنى الذي بدا واضحاً شفافاً للصينيين هو أن الولايات المتحدة ألزمت نفسها سياسياً خلال الفترة التي دُعيت بالانتقالية المؤدية إلى إعادة الوحدة،

بسحب أكيد لوجودها. واعتقدت بكين أنه سيعقب ذلك مباشرة استعادتها لسيادتها على تايوان. وهذا ما أكدته وثيقتان متتاليتان: الإعلان المشترك حول إقامة علاقات دبلوماسية بين الصين والولايات المتحدة سنة 1979، والإعلان المشترك في شهر آب / أغسطس 1982 المتعلق بمبيعات الأسلحة الأمريكية إلى تايوان. في جميع هذه الاتفاقيات وافقت الولايات المتحدة على «وجود صين واحدة وأن تايوان جزء من الصين». والعبارة الموضحة لذلك ظهرت في الوثائق الثلاث جميعها. تلك هي الاتفاقيات التي شعرت بكين أنها انتهكت بتشجيع أمريكي للمشاعر الانفاصلية التي عبر عنها القادة التايوانيون في آذار / مارس 1996 وآذار / مارس 2000.

ومع هذا فإن الالتزام الأمريكي أمام بكين في هذه المذكرات الثلاث قد تناقض مع لغة قانون العلاقات مع تايوان لسنة 1979 الذي يحكم العلاقات الأمريكية مع حكومة تايوان نفسها. واستناداً لهذا القانون الصادر عن الكونغرس:

تقضي سياسة الولايات المتحدة.. الأخذ بالاعتبار أي جهد لتقرير مستقبل تايوان بوسائط غير سلمية، ومن ذلك أعمال المقاطعة أو الحظر، وتهديد أمن وسلام منطقة غرب المحيط الهادي ذات الأهمية البالغة للولايات المتحدة والاستمرار في استخدام طاقة الولايات المتحدة لمقاومة أي نوع من الإكراه أو أشكال القسر التي تعرض للخطر أمن شعب تايوان أو نظامه الاجتماعي والاقتصادي[70].

بعبارة أخرى إن تايوان تعتقد أن الولايات المتحدة قد التزمت أمامها، في حال قيام أعمال عدوانية بين تايوان والصين، وأنها ملتزمة قانونياً بالدخول في النزاع إلى جانب تايوان. وتنظر تايوان إلى هذا على أنه التزام أمني صارم، من النوع الذي ميّز العلاقة الأمنية بين دول الناتو خلال الحرب الباردة، في حال هجوم قوات سوفييتية على أي منها.

ينشب هذا النزاع لأن «إعلان شانغهاي» يقوم على الافتراض بأن معظم الناس على كلا جانبي ممر تايوان يؤمنون بأن تايوان جزء من الصين. وهذا غير صحيح بالتأكيد ونحن على عتبة القرن الحادي والعشرين. كتب هنري كيسنجر المهندس الأمريكي الرئيس «لإعلان شانغهاي» في مذكراته «أن الفقرة الخاصة بتايوان في الإعلان قد وضعت قضية تايوان معلقة مؤقتاً مع استمرار كل طرف بالتمسك بمبادئها الأساسية»[71]. ولكن ادعاء كيسنجر بترك القضية «معلقة» كان يصح لو أن هذا الافتراض في الإعلان بقي مقبولاً من جانب كلا الطرفين. وإلاَّ فإن «الولايات المتحدة ملتزمة نظرياً بما يخالف الحقيقة وهو أن جميع الناس المعنيين بهذا الوضع التاريخي الفريد يرون أنفسهم وكأنهم ينتمون إلى البلد نفسه، كما لو أنه عملياً التزام بحقيقة واقعة، وهذا ما لا يفعلونه»[72] كما قال الصحفيان الأمريكيان ريتشارد بيرنستين وروس مونرو.

وهذا هو ما أثار الغضب بين الزعماء الصينيين بشأن قضية تايوان: لقد اعتقدوا أن الولايات المتحدة قد التزمت تكراراً على مدى ما يزيد على ربع قرن بوجهة نظرهم من المسألة ـ أي بوجهة النظر القائلة إن تايوان كانت دوماً مقاطعة من مقاطعات الصين، وينبغي أن تعود بأسرع وقت ممكن إلى «الصين» الواحدة وعاصمتها بكين. وعلى هذا الأساس قرر ماوتسه تونغ وشو إن لاي إقامة علاقات مع الولايات المتحدة سنة 1972، وعلى هذا الأساس قرر وينغ هيسياو بينغ تطبيع العلاقات مع الولايات المتحدة سنة 1979. إنه الأساس الذي أوجد العلاقات بين واشنطن وبكين أصلاً. هذا ما يستطيع الصينيون أن يقرؤوه في الوثائق. ومع هذا ماذا يرون منذ 1972، مع تصاعد كبير أثناء فترة إدارة كلينتون؟ إنهم يرون بناء عسكرياً ضخماً لتايوان، يتضمن تجهيزات حربية أمريكية بالدرجة الأولى، ومستشارين أمريكيين، وبناء «حائط هائل» بين الجزيرة والأرض الأم. وبدا في بكين أن الأمريكيين يحاولون أن يُظهروا لهم

أن تايوان لن تكون أبداً جزءاً من الصين، وهي نتيجة تفيد أن الأمريكيين يعتقدون أنهم يستطيعون أن يضمنوا ذلك عن طريق إظهار القوة العسكرية المهيمنة ذات التكنولوجيا العالية.

كتب رئيس مكتب بكين السابق، باتريك تايلر، في صحيفة نيويورك تايمز منذ مدة قريبة، مسترجعاً محادثة أجراها في ربيع سنة 1995، مع وانغ جيزي، وهو عضو بارز في «أكاديمية العلوم الصينية». وكان وانغ قد عاد توّاً من مجمع المختصين الصينيين في الولايات المتحدة. قال:

أريد أن أقص عليكم إجماع هذا المجمع. النقطة الأولى هي أن أمريكا في تراجع، ولهذا فهي ستحاول أن تعيق ظهور الصين كقوة عالمية. وفي رأي المشاركين أن الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة التي تهدّد أمن الصين الوطني. أنتم تعرفون أن اليابان، لأسباب تاريخية، كانت على الدوام أكثر الدول عداوة للصينيين، ولكنني أستطيع أن أقول لكم إن الولايات المتحدة، في أوساط كبار المسؤولين الصينيين، هي (الآن) أكثر الدول عداوة[73].

أصبحت الولايات المتحدة باختصار عدوة الصين الأولى في ربيع سنة 1995. كان هذا قبل المواجهة في مضيق تايوان في آذار / مارس 1996، وقبل التفجير غير المقصود للسفارة الصينية في بلغراد في أيار / مايو 1999، وقبل أزمة الانتخابات في تايوان في آذار / مارس سنة 2000[74]. كل حدث من هذه الأحداث زاد من تردّي العلاقات الأمريكية ـ الصينية. ولكن حتى قبل حدوثها، استناداً إلى وانغ جيزي، فإن أولئك القابعين في بكين، الذين يعرفون أمريكا حقّ المعرفة، كانوا يعتبرون الولايات المتحدة العدو الأول.

ما هو الحل لهذا التدهور في العلاقات بسبب قضية تايوان؟ ما الذي يمكن القيام به إزاء ما يبدو «أزمة ذات تحرك بطيء» مع خطر متزايد لوصول الولايات المتحدة والصين إلى حالة نزاع[75]؟ يعتقد مايكل أوكسينبرغ

Oksenberg من جامعة ستانفورد ومختص أمريكي بشؤون الصين، أن على الأمريكيين، قبل كل شيء، أن يشرعوا بإظهار المزيد من «الاعتناق والتفهم.. تجاه التفكير في المشكلات التي يواجهها قادة الصين»[76]. ويشير خصوصاً إلى أنه يجب علينا أن نحاول تفهم شعورهم بالخديعة، وكيف يتغذى هذا الشعور بشكوك تعود إلى القرن التاسع عشر، عندما كانت الصين ترى نفسها محتلة ومُذَلَّة ومستغلة. وهم يتذكرون على الدوام، كما يقول روبرت مكنمارا، أن شانغهاي في الثلاثينيات كانت تضم منطقتين أجنبيتين واسعتين، إحداهما يحكمها البريطانيون، والأخرى يحكمها الفرنسيون، حيث كانت توجد لافتات واضحة كتب عليها «منطقة محظورة على الكلاب والقطط والصينيين». ويستخلص أوكسينبرغ أن «السياسة الخارجية الصينية في القرن العشرين تتضمن إلى حد بعيد البحث عن تعويض المظالم الوطنية واستعادة المجد الضائع»[77].

إضافة إلى ذلك، ثمة اهتمام خاص لدى القادة الصينيين في بكين في مرحلة ما بعد الحرب الباردة لتعزيز قبضتهم للإمساك بزمام القوة، واحتمال أن تحذو الصين حذو ما آل إليه الاتحاد السوفييتي من التمزق إلى جمهوريات شتى لا تملك أية واحدة منها القوة والنفوذ السابقين للاتحاد[78]. وهذه معادلة صعبة: التطلع إلى استعادة الماضي المجيد ومكانة الصين، مترافقاً مع الخوف من تزعزع وضعها الحالي من طريق «تطويق» أمريكي وياباني. وتايوان تجسد كل شيء تسعى إليه القيادة الصينية (استعادة الوحدة واستعادة حدودها الجغرافية السابقة على الأقل) والمخاوف (من خسارة تايوان، وخسارة ماء الوجه والكرامة، وخسارة المصداقية بشأن هيمنتها الإقليمية فضلاً عن مركزها ذي القوة الكبرى). وسواء أوافق المرء أم لم يوافق على سياسات الحكومة الشيوعية في بكين، فإن تفهم الضغط الذي يشعر به زعماؤها يبدو لنا مجرد الحد الأدنى لتقليص بواعث النزاع حول تايوان. وعلى الولايات المتحدة، على الأقل، أن

تحثَّ تايوان على تجنب الأفعال التي تبدو مناهضة لسياسة صين واحدة.

إن الوضع الراهن الملتبس قد لا يكون مُرضياً تماماً لأي من الطرفين، ولكنه بالتأكيد أفضل من حرب محتملة ـ إذا استمرت تايوان في تمهيد الطريق إلى الاستقلال و/أو استمرت بكين من حين إلى آخر في تهديد الجزيرة عسكرياً. ولقد اقترح المساعد الأمريكي السابق لوزير الدفاع، جوزف س. ناي الابن (الذي يشغل حالياً منصب عميد مدرسة كينيدي لشؤون الحكم التابعة لجامعة هارڤرد) معادلة مفيدة: أن تتعهد بكين بعدم استخدام القوة ضد تايوان التي تتعهد بدورها عدم الإعلان عن الاستقلال[79]. ومع أن هذا الحل لا يعتبر حلاً نهائياً إلاَّ أنه يشتري وقتاً ثميناً لا بد منه للوصول إلى حل.

وأخيراً، نحن نعتقد أن على الولايات المتحدة أن تسعى للقيام بدور الوسيط للوصول إلى مثل هذا الحل النهائي. في الماضي رفضت بكين الوساطة الأمريكية لأنها ادعت، وهو ادعاء له ما يبرره، أن الولايات المتحدة بعيدة عن الحياد في هذا النزاع. ومع هذا فإننا نعتقد أنه من المفيد استطلاع رأي كل من بكين وتايوان في جدوى الوساطة الأمريكية إذا كان الهدف المرحلي الأولي هو ترتيب يتفق مع ما اقترحه ناي Nye[80].

الأفكار الخاطئة الخطرة المتعلقة بالنزاع بين الدول الكبرى

كيف يفسر مراقبون أمريكيون أو غربيون آفاق نزاع بين الدول الكبرى يشمل الولايات المتحدة من جهة، وروسيا والصين من جهة أخرى؟ هل لاحظوا الخلافات التي لاحظناها؟ هل يعتقدون أنها لا تعبّر إلاَّ «الآلام المتزايدة» للعلاقات الدولية في فترة ما بعد الحرب الباردة؟ أم أنها تعبر عن الاهتمام بأن تلك الاختلافات تشير إلى مشكلة كبيرة في العلاقات بين الدول الكبرى عند آفاق القرن الحادي والعشرين؟ معظمهم لا يرون ذلك. نحن نحكم على المواقف الأمريكية النموذجية من المشكلة بحيث تكون حساسة وواقعية.

وإنّ تَفهّم الروس والصينيين غير موجود حقاً. ولا يبدو إلاّ اعتراف ضئيل بالطرق المحتملة غير المتعمدة لنزاع بين هذه القوى العظمى والخطوات الضرورية للحيلولة دون ذلك.

نحن نعتقد أن المواقف والتقديرات في الولايات المتحدة والغرب عموماً تجاه نزاع الدول الكبرى قد أصبحت جزءاً من المشكلة، أكثر مما هي جزء من أي حل واقعي.

«رد الفعل» الأكثر شيوعاً في الولايات المتحدة هو عدم وجود رد فعل على الإطلاق. فالحرب الباردة انتهت. والولايات المتحدة تقف وحيدة في مواجهة العالم. ماذا يمكن أن يقال أكثر من ذلك؟ الشعب الأمريكي فقد الاهتمام بالشؤون العالمية بصورة عامة، وهو ما يبدو أمراً غريباً في ضوء السرعة الخاطفة التي تحل بها العولمة. لقد خُفِّض التمويل بصورة حادة للبعثات الخارجية التي تديرها وزارة الخارجية الأمريكية. كما أن المؤسسات الأمريكية قد قطعت مساهماتها الإنسانية الخيرية للأمن الدولي بصورة عامة، ولا توجد تقريباً أية مؤسسة الآن تمول الأبحاث التي تركز على الحيلولة دون نزاع الدول الكبرى. وهذا يختلف تماماً مع الوضع الذي كان سائداً قبل عشر سنوات خلت، وهو يُبرز الحكمة السائدة اليوم التي تفيد بأن خطر الحرب الباردة الناجم عن نزاع بين الشرق والغرب قد ولّى، ولا يوجد الآن خطر نزاع بين الدول الكبرى. كذلك شأن التغطية الإعلامية: تغطية القضايا الجيو ـ سياسية الدولية، كما هو الحال الآن في جميع الولايات المتحدة، مكرسة بالدرجة الأولى للكوارث الإنسانية التي تحتوي على صور مأساوية والتي تحظى بفرصة للفت انتباه مشاهدي التلفزيون، وتُعَدّ المصدر الأساس للأخبار للغالبية العظمى من الأمريكيين. وهكذا فإن معظم الأمريكيين ببساطة غافلون عن أي خطر لنزاع بين الدول الكبرى في القرن الحادي والعشرين. ويمكن لوجهة النظر هذه أن تلخَّص على الوجه التالي: هناك قوة واحدة عظمى ـ هي الولايات

المتحدة. فكيف يمكن أن ينشأ خطر نزاع بين الدول الكبرى في عالم نُمثِّل فيه، القوة العظمى المعتدلة، القوة العظمى الوحيدة؟

والحق أنه يبدو من الصعب أيضاً لكثير من المختصين في السياسة الخارجية أن يأخذوا على محمل الجد إمكانية نزاع مع روسيا و/أو الصين، في غياب التهديدات الوشيكة للحرب الباردة، كهجوم نووي من جانب روسيا، أو «أحجار الدومينو» التي تُسقطها الصين. والمجلات التي كانت تزدحم قبل عدة سنوات بالسيناريوهات التحذيرية من نزاع محتمل مع الروس أو الصينيين قد باتت تتجنب مثل هذه الموضوعات اليوم تقريباً. وعلى سبيل المثال فحسب: في إصدار خريف سنة 1999 من مجلة «الشؤون الخارجية» Foreign Affairs، التي هي أقوى المجلات تأثيراً في هذا الميدان، طرحت المجلة عدة أمثلة على إخفاق مثل هذا التخيل في الغرب والمتعلق بالحاجة إلى تقليص خطر نزاع بين الدول الكبرى في القرن الحادي والعشرين. كانت خلاصة كل مقالة تفيد: كيف يمكن أن تظل روسيا والصين تعتبران تهديداً للولايات المتحدة؟ إنهما ببساطة الخاسران في الحرب الباردة.

وفي مقالة بعنوان «انهيار روسيا» يشير أندريس أسلوند Aslund، الذي كان في وقت من الأوقات مستشاراً لحكومة يلتسين، إلى نكتة شائعة في موسكو: «هناك طريقتان للخروج من الأزمة الاقتصادية الروسية. الطريقة الطبيعية وهي أن يهبط عدد كبير من مخلوقات الفضاء إلى الأرض وأن يعملوا اثنتي عشرة ساعة في اليوم لإنقاذ الاقتصاد الروسي. والطريقة الإعجازية هي أن يقوم الروس بذلك بأنفسهم»[81]. وفي نكتة ثانية يقول: إن المرفق الروسي للطاقة يعلن أن الضوء في نهاية النفق قد انقطع مؤقتاً بسبب نقص الوقود[82]. ويلاحظ أسلوند ـ الذي كان يعتبر شديد التفاؤل بالشؤون الروسية ـ أن الحكومة قد عادت إلى الوعظ الدعائي الحافل بالذكريات عن المرحلة السوفييتية مثل: «لا أحد يساعد الروس غيرنا»[83]. ومع أن الشعار صحيح، فإنه أجوف ويشبه

الشعارات الدعائية الكوبية التي تحض الكوبيين على «أن يكونوا مثل تشي». إن روسيا، كما يقول رجل الاستثمارات المالية جورج سوروس، تعاني من «انصهار» مالي كامل و«آمالها مظلمة» في أن تستعيد عافيتها، لأن الأوضاع الدولية لا تريد أن تغامر بمحاولة إنقاذها[84]. روسيا لا أهمية لها. فلماذا نقلق؟

ويتساءل جيرالد سيغال، المدير السابق للدراسات في «المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية» في لندن، تحت عنوان «هل الصين مهمة»؟ والجواب عند سيغال هو «لا» أو على الأقل «ليست مهمة كثيراً». المملكة المتوسطة هي مجرد قوة متوسطة. ويقول: «وقد يبدو غريباً أن الدولة التي تضم خمس البشر قد بولغ في تقديرها باعتبارها سوقاً ودولة كبرى ومصدراً للأفكار. إن الصين في أفضل الأحوال دولة متوسطة من الدرجة الثانية أتقنت فن المسرح الدبلوماسي»[85]. والخلاصة: لا يوجد إلاّ سبب ضئيل، أو لا سبب على الإطلاق، للقلق من بكين.

ولكن لا يوجد إدراك واضح في أيٍّ من هذه المقالات إلى أن الولايات المتحدة إذا أخفقت في معاملة روسيا أو الصين باعتبارها دولاً كبرى حقيقية، فإن روسيا و/أو الصين قد تجابهان في النهاية الولايات المتحدة عسكرياً، وسينجم عن هذا حرب مدمرة. نحن نعتقد أن أولئك الذين يميلون إلى اعتبار روسيا بالدرجة الأولى دولة «عاجزة»، ويرون الصين مجرد قوة من الدرجة الثانية تعاني من فشل في التخيل ـ أي عدم القدرة أو عدم الرغبة في التخيل بأنها «خسرت» الحرب الباردة، وألاّ تواجه مرحلة ما بعد الحرب الباردة على أنها القوة العظمى المنتصرة الوحيدة.

ماذا يكون وضع الناس والزعماء الفخورين في روسيا والصين كي يجابهوا محاضرات وإهانات من جانب الهيمنة الأمريكية، وأعداء مرحلة الحرب الباردة الذين كانوا يعتبرون لفترة جيل أنهم متساوون من الناحية الجيو ـ سياسية، ولكنهم يميلون الآن إلى معاملتهم كأطفال جهلة وليس كخصوم

جديين؟ هل ندهش من تراكم الاستياء لدى الخاسرين في الحرب الباردة الذين كانوا، وما زالوا إلى حد بعيد، في الجانب الخاطئ: من التاريخ؟ من الممكن أننا نحن أيضاً، في ظل مثل هذه الظروف، سوف نقاوم بعنف ما يبدو خديعة أو تبشيراً زائفين؟ وإذا ما انقلبت الأدوار هل نعتبر الوحش الجيو ـ سياسي الصيني أو الروسي فضولياً متعجرفاً أو إمبريالياً وقحاً؟ وهل نتخذ خطوات محسوسة لتصحيح الوضع، حتى لو كان المسيطر ربما يعتبرهما استفزازيين ـ استفزازيين جداً إلى حد يمكن أن تنشأ معه أزمة خطيرة، من النوع الذي يمكن أن يتصاعد إلى مستوى مجابهة عسكرية؟

نعتقد أن الجواب على جميع هذه الأسئلة سيكون بالإيجاب. ولكن الكثير من الأمريكيين، المنتشين بانتصارهم في الحرب الباردة على روسيا والصين، قد ابتعدوا عن الشؤون الخارجية بصورة عامة. ولشعورهم بالأمن وهم في غفلتهم لا يسألون أنفسهم أبداً مثل هذه الأسئلة.

وفي حين أن منتصري الحرب الباردة غافلون عن أي خطر لقيام حرب ما بين الدول الكبرى؛ بين الولايات المتحدة وبين روسيا أو الصين، فثمة مجموعة أخرى من الباحثين والمحترفين ـ تطلق على نفسها صفة «الواقعيين» ـ يميلون إلى الاعتقاد بأن الفترة الراهنة التي تلت الحرب الباردة ما هي إلاّ فترة هدوء نسبي قبل هبوب عاصفة الدول الكبرى. ويخرج المرء بانطباع مما يقوله بعضهم: إن تهديد دولة كبرى للولايات المتحدة ليس بالأمر المستبعد، بل إنه حتمي فعلاً. إنهم يرون أن طبيعة نظام الدول المستقلة تخلق دورات من السلام النسبي، ودورات من النزاع، كشأن تصاعد نفوذ الدول الكبيرة وقوتها وثروتها وهبوطها. هكذا هم يقرؤون تاريخ القوى الكبرى منذ سنة 1648 عندما كُتب نظام الدولة ـ الأمة في أوروبا في معاهدة ويستفاليا التي أعقبت حرب الثلاثين سنة. والحق أن الواقعيين يركزون أكثر ما يركزون على الدول الكبرى ـ أي على تاريخ دبلوماسية ورخاء الدولة الكبرى، ونظرية العلاقات الدولية التي يستقونها منه.

ثمة أسباب كثيرة تجعل الواقعيين متشائمين كثيراً بشأن النزاع بين الدول الكبرى في القرن الحادي والعشرين. ولعل أهمها في اعتقادهم أن الدولة ـ الأمة كانت وستظل الوحدة الأساسية في العلاقات الدولية، وأن العلاقات بين الدول توجَد ضمن وضع من الفوضى السياسية، التي تجعلها مضطرة لحماية نفسها ومراعاة مصالحها الخاصة. والمؤرخ البريطاني المشهور السير مايكل هوارد هو من بين المؤمنين بهذه الرؤية. يقول هوارد:

يصعب أن ننفي أن الحرب مغروسة في طبيعة الدولة ذاتها. فالدول تحدد هوياتها تاريخياً عن طريق العلاقة بين دولة وأخرى، وتؤكد وجودها ورسم حدودها باستخدام القوة أو التهديد الفوري باستخدام القوة، ولما كانت الأسرة الدولية تتكون من دول مستقلة، فإن الحرب بينها تبقى **احتمالاً** يجب على جميع الحكومات أن تضعه في حسابها عقلانياً. . .

يقول نيتشيه Nietzsche من يصارع التنين عليه أن يكون تنيناً. . (ولكن) الوجه الآخر للأزمة هو أنّ من لا يقاتل التنين يمكن أن يفترسه التنين[86].

هذا هو عالم الواقعيين، عالم تهيمن عليه الدول الكبرى، والحرب جزء متمم لهذه الهيمنة. هل يحتاج العالم إلى أن يكون كذلك؟ وهل يمكن أن تخطو الحرب ـ وخاصة الحرب بين الدول الكبرى ـ إلى مستوى وحشية وبدائية الماضي كشأن عهود العبودية؟ إلى أولئك الذين يتطلعون إلى هذا يقول هوارد: «إن تاريخ البشرية يؤرخ أوهاماً قليلة أشد قساوة من تلك الآمال التي عانت منها أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين»[87].

وكذلك فإن هذه القضايا أيضاً، لن تتغير بسرعة في أي وقت بالنسبة إلى الواقعيين، لأن نظام الدولة لن يتغير. هذا الإيمان الراسخ بأولوية **النظام الدولي** للدول ـ الأمم التي تهتم كل منها بأنانية بمصالحها الخاصة في وضع من الفوضى، يمكن أن يوصلنا إلى بعض الآراء الجديرة بالملاحظة. فعلى سبيل المثال كتب جون ميرشيمير Mearsheimer من جامعة شيكاغو، وهو باحث

واقعي في الشؤون العسكرية وذو نفوذ، سنة 1992، في أعقاب انهيار الاتحاد السوفييتي ما يلي:

الآن ومع اندثار الحرب الباردة في حاوية نفايات التاريخ... يعتقد المتفائلون أن هذه التغييرات يمكن أن تصلح أساساً لعالم أكثر سلاماً في القرن الحادي والعشرين.

في الواقع لم **تجر أية تغييرات جوهرية في طبيعة السياسة الدولية منذ الحرب العالمية الثانية**. فنظام الدولة ما يزال قائماً وفي وضع جيد. ومع أن التنافس العسكري بين الدول المستقلة أمر مؤسف، فإنه سيظل الصفة المميزة للسياسة الدولية في المستقبل المنظور[88].

إن نهاية الحرب الباردة، وانهيار الاتحاد السوفييتي، واختفاء أوروبا الشرقية وإمبراطوريات آسيا الوسطى ـ جميع هذه الأحداث لم تفرز «تغييرات جوهرية» في العلاقات الدولية. كيف يكون هذا ممكناً؟ لأن نهاية الحرب الباردة، وفقاً لما يقوله الواقعيون، قد تركت نظام الدولة سليماً لم يمس، وهو نظام ذو طبيعة **تنافسية** أكثر مما هو ذو طبيعة تعاونية.

ثمة سبب آخر لتشاؤم الواقعيين، إضافة إلى خصائص نظام الدولة، هو اعتقادهم أن نهوض الدول الكبرى وسقوطها يميل إلى الحدوث ضمن **دورات** مصحوبة على نحو ثابت بتنافس متزايد بين الدول، ينتهي في الغالب إلى حرب. واستناداً إلى رأي كينيث وولتز Waltz، وهو واقعي معاصر بارز، فإن بنية النظام الدولي توفر معلومات مهمة تتعلق بخطر الحرب بين الدول الكبرى، هل هي في تزايد أم في نقصان؟ وبصورة عامة، حسب رأي وولتز، فإن الأنظمة المتعددة الأقطاب تميل إلى الاستقرار، مع تحالفات تتكوّن لإحداث توازن بين القوى. أمّا الأنظمة الوحيدة القطب، كالتي يعتقد بعضهم أنها ما تزال موجودة في أعقاب الحرب الباردة، فتميل إلى التآكل فيما تحاول الدول أن تحافظ على استقلالها وأمنها بالسعي إلى تحالفات تساعد في التوازن مع خطر القوة المهيمنة. وعندما يحدث هذا، تقوم دولة ناهضة أو اثنتان أخيراً بتحدي

الدولة الرائدة، وهو موقف غالباً ما يؤدي إلى حرب بين الدول الكبرى[89]. وهكذا تبدأ دورة أخرى من دورات التاريخ في عالم الصراع المتبادل في السياسة الدولية كما يرى الواقعيون.

يشترك معظم الواقعيين في فكرة الدورة هذه للحرب ما بين الدول الكبرى. ولعل خير ممثل لهم المؤرخ المعروف بول كينيدي من جامعة ييل. فقد كتب يقول، متأملاً في نتائج الحرب الباردة سنة 1993: «إن الافتقار إلى سيادة عالمية، والدوافع التنافسية للدول ـ الأمم مع تآكل نفوذها النسبي وضعفه، يعزز حجج المدرسة **الواقعية** اليوم، التي قد تفترض بصورة غير عاقلة سلاماً دائماً بين الدول الكبرى على مدى العقود القادمة»[90].

ويكتب كينيدي، متطلعاً إلى الأمام: «قد يتوفر لدينا سبب للاهتمام بمستقبل سلام العالم واستقراره وشرعيته. والحق، كما تقول اللغة الصينية، نحن مُقدّر لنا أن نعيش أوقاتاً مثيرة للاهتمام»[91]. هذا المتغير الدوري عند الجماعة الواقعية يصل إلى نتيجته المنطقية عن طريق المفكر النظري في العلاقات الدولية إيمانويل وولرستاين Wallerstein، الذي استخلص باستخدام نماذج رياضية من التبدل التاريخي، أن كل دورة من هذه الدورات تمتد من 50 ـ 60 سنة، وهذا يعني (له) أن السلام والاستقرار لا بد أن يعودا إلى القرن الحادي والعشرين عند حوالى سنة 2070، هذا إذا ظل أحد على قيد الحياة ليستمتع بهما بعد حرب بين الدول الكبرى[92].

جميع هذه الأفكار التأملية لدى الواقعيين فيما يتعلق بالحرب بين الدول الكبرى ما هي إلاّ عواصف مجردة في فنجان أكاديمي، حيث إنها لا تتضمن أية خيارات سياسية خطرة ومهمة للولايات المتحدة في السنوات القادمة. لقد كان جون ميرشيمير في العقد الماضي واحداً من أبرز المعارضين للواقعيين في توضيح ما يجب على الولايات المتحدة أن تفعله كي تنجو في القرن الحادي والعشرين الذي سيتحدى سيادتها، بل حتى بقاءها فيه مع قوى عظمى أخرى.

ويتساءل: ما هي المبادئ التي ينبغي أن تكون مرشداً للأمن القومي الأمريكي في العقود القادمة؟». يتألف جوابه من نقطتين:

- منع الحرب بين الدول الكبرى بإحداث توازن سريع وفعال تجاه المعتدين المحتملين (أي الاحتفاظ بسيطرة عسكرية لمصلحة الأمن والاستقرار).
- تجنب التدخل العسكري في المناطق غير الاستراتيجية بوصفه سياسة متفق عليها وبدون استثناء. (وهذا ينطبق على العالم الثالث برمته)[93].

ويرى ميرشيمير أيضاً أن الولايات المتحدة تستطيع أن تحقق الاستقرار في أوروبا ما بعد الحرب الباردة عن طريق تحقيق «الانتشار المحدود والموجه بعناية للأسلحة النووية»[94]. هذه التوصية دفعت المؤرخ جون غاديس Gaddis من جامعة ييل أن يعلق بأن هذا «ما يحدث عندما تهدف النظرية إلى الحكم على الأشياء بصورة سليمة»[95].

كيف ينطبق حكم الواقعيين على روسيا والصين في القرن الحادي والعشرين؟ يحذر العالم السياسي، من جامعة برنستون، روبرت غيلبين Gilpin، أحد الواقعيين من ذوي المكانة الرفيعة، أن من المحتمل أن تكون روسيا والصين من الدول العظمى في القرن الحادي والعشرين. فروسيا، كما يقول غيلبين «قد كانت قوة كبرى على مدى قرنين ولها مصالح حيوية في أوروبا الشرقية، والشرق الأوسط، وشرق آسيا. ومن المستبعد كثيراً أن تتخلى روسيا، سواء كانت دولة ديموقراطية أو سلطوية، عن هذه المصالح الراسخة ذات التاريخ الطويل»[96]. ويرى غيلبين أن الصين هي «أخطر القضايا... التي تواجه آسيا والعالم» إذ «كيف سيختار الصينيون استخدام تقدمهم الاقتصادي السريع وقوتهم العسكرية»[97]. هذا تحليل واقعي نموذجي، وهو يتوافق مع نظرية الدول ذات السيادة التي تعمل ضمن بيئة فوضوية.

أحد الجوانب البالغة الأهمية في تحليل الواقعيين ووضع قواعد السياسة،

أن وجهة نظرهم تتضمن عادة أن نهاية الحرب الباردة **لم تغير شيئاً** مهماً فيما يتعلق بالتهديدات المحتملة من جانب الدول الكبرى الأخرى تجاه الولايات المتحدة. وهم يميلون بوجه خاص إلى اعتبار روسيا ما بعد المرحلة السوفييتية أخطر تهديد للسلام وللمصالح الأمريكية. وحديثاً كتب وزير الخارجية الأمريكي السابق هنري كيسنجر، الواقعي منذ وقت طويل، أن المشكلة المركزية للأمن الأمريكي يُحتمل أن تبقى روسيا «الإمبريالية تاريخياً والتي ارتبط كيانها بالتوسع». ويرى كيسنجر أن «مأساة الروس تاريخياً أنهم لم يكونوا قادرين على إيجاد الأمن بالاستفادة من تطورهم»[98]. ويرى أن المهمة الأساس للسياسة الأمريكية اليوم ليست إحلال الديموقراطية في روسيا. بل الأهم من ذلك «إقناع الزعماء الروس إنه إذا كانت سنغفورة، واليابان، والنمسا، وكل بلد في العالم تقريباً، قادرة على أن تنمو وتتطور بدون توسع فمن الممكن أن يتوفر هذا بالتأكيد لبلد تزيد مساحته عشرات المرات عن تلك الدول»[99].

كيف يمكن تحقيق ذلك؟ يعتقد مستشار الأمن القومي السابق، زبيغنو بريزينسكي، وهو من الواقعيين أيضاً، جازماً بما يسميه الاحتفاظ بـ «هيمنة أمريكية معتدلة» في جميع منطقة «أوراسيا. . . القارة المحورية الهامة في العالم»[100]. والمهمة المطلوبة في رأي بريزينسكي تبقى بدرجة أو بأخرى كما كانت عليه أثناء الحرب الباردة وكما مارسها عندما كان عضواً في إدارة كارتر السابقة وهي: كبح الروس في الغرب عن طريق روابط قوية لحلف الناتو، وكبحهم في الشرق عن طريق سيادة مفيدة مشتركة مع الصينيين. ويعتقد بريزينسكي أن الولايات المتحدة، في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، لديها فرص لم تكن متاحة لها أثناء الحرب الباردة ومنها: توسيع «الناتو» بأسرع وقت وأشمل صورة، وتعزيز العلاقات مع بكين، ويتحقق هذا جزئياً عن طريق إعادة التزام قوي بسياسة صين واحدة، وبطرائق أخرى مثل تسهيل ظهور الصين تدريجياً كقوة إقليمية مهيمنة. ويرى بريزينسكي أنه فيما ستظل الصين منافساً

محتملاً للولايات المتحدة في آسيا، فإنها ستظل عاجزة عن تحدي الولايات المتحدة لعدة عقود، ومن ثم يمكن إعطاؤها فسحة واسعة من المناورة في منطقتها (وهي فكرة تطرّق إليها كيسينجر أيضاً). وفيما يحتمل أن تبقى الصين منافساً في وجه أمريكا، فإن أكثر المشاكل إلحاحاً لأولئك الواقعيين هي احتواء روسيا.

هل يُقلِق بريزينسكي انفجارٌ محتمل في العلاقات الأمريكية الروسية؟ كلا. فمثل هذه الاستراتيجية، كما يعتقد، «ستشجع روسيا على اتخاذ قرارها الذي طال انتظاره في مرحلة ما بعد الإمبريالية لمصلحة أوروبا»[101]. وعلى أية حال «إن دور روسيا الأطول أمداً في أوراسيا سوف يعتمد إلى حد بعيد على تحديدها الذاتي» أكثر مما يعتمد على أي شيء تقوم به الدول أو التحالفات الأخرى[102]. واستناداً إلى بريزينسكي، فإن روسيا تحتاج قبل كل شيء إلى أن تفهم أن إمبراطوريتها السابقة في وسط أوروبا لم تعد قائمة إلى الأبد، وأن أفضل طريقة لإرسال رسالة هي احتواء تلك الإمبراطورية السابقة في إطار «الناتو» في أسرع وقت ممكن.

وهو يوصي مثلاً أنه حتى دول البلطيق، بالحجم الكبير من سكانها من العرق الروسي، ينبغي أن تنضم إلى الناتو خلال فترة لا تزيد على 2003[103]. يصعب علينا أن نتخيل خطوة أكثر استفزازاً تقل عن تدخل «الناتو» عسكرياً في روسيا نفسها، في الشيشان على سبيل المثال. ويعتقد بعضهم أن ابتلاع «الناتو» لجمهوريات بحر البلطيق سوف يؤدي مباشرة إلى أزمة خطيرة تذكر بأزمات الحرب الباردة ما بين الشرق والغرب. ولكن بريزينسكي الواثق من اعتقاده أن الولايات المتحدة يجب أن تبقى «مهيمناً معتدلاً»، والمهتم بأن تُمسك الولايات المتحدة بفرصة انشغال الروس بأوضاعهم الداخلية الكارثية، يبدو غير قلق تجاه النتيجة الختامية. وهو يقول: «إن اهتمام روسيا الأول، على أية حال، هو أن تجعل نفسها معتدلة بدلاً من الانخراط في جهود مميتة لاسترجاع مكانتها بصفتها قوة عالمية»[104].

بهذه الطريقة فإن الواقعيين يفهمون أن روسيا والصين في القرن الحادي والعشرين يحتمل أن تكونا دولتين مُحاربتين تتحديان ما يُسمى الهيمنة الأمريكية ـ روسيا سريعاً والصين فيما بعد. وهذا النمط من السلوك مدفوع ببواعث عدوانية، إذا تُرك بدون مراقبة فسيقود في النهاية إلى تهديد مصالح الولايات المتحدة الحيوية. ولهذا السبب يجب على الأمريكيين أن يُبيِّنوا سلفاً لروسيا الآن، وللصين فيما بعد، إذا دعت الضرورة، أن الولايات المتحدة قوية جداً من الناحية العسكرية، بحيث لا يمكن تهديدها جدياً فضلاً عن هزيمتها في حرب. وهم يقولون إن هذا من شأنه أن يحفظ السلام ويحول دون الغموض والشك في النظام الدولي للعلاقات بين الدول، الذي يمكن أن يؤدي إلى حرب بين الدول الكبرى في القرن الحادي والعشرين.

نحن نرفض هذا التحليل برمته. ويبدو لنا أن الواقعيين في الحقيقة **غير واقعيين** في تحليلهم لعالم القرن الحادي والعشرين. وهم يصابون بغشاوة على أعينهم خاصة تجاه دروس المثل الويلسوني الذي افتتحنا به هذا الفصل، وخاصة خطر محاولة إكراه دولة بالتهديد، أو إذلالها أو قسرها، دولة تعتبر نفسها قوة كبرى. قد نُكرههم على الإذعان على المدى القصير. ولكن وقائع الإذلال تدل على أنها كانت طويلة، والمشاعر التي تتولد عن تفوّق الهيمنة الأمريكي، والتي يستحسنها الواقعيون كانت حادة بصورة بالغة.

ولهذا فإن هذه النظرة التي ترى أن روسيا والصين تطمحان إلى تحدي الولايات المتحدة وهزيمتها في القرن الحادي والعشرين، لهي نظرة باطلة. إنها تخلق أعداء حيث لا حاجة إلى وجودهم. وهي تُفضي إلى إضاعة فرص سلام راسخ قد لا تعوض ثانية أبداً. وتؤدي إلى تنبؤات ذاتية بنزاع بين الدول الكبرى يُخطئ الواقعيون في اعتبارها ظواهر ذات حدوث طبيعي. ولا حاجة إلى القول إنها تفتقر تماماً إلى تفهم أنماط التاريخ البشري ووجود خلاف بين النمط الليبرالي الغربي والأنماط الأخرى. وفيما تبدي بعض المهارة في الربط ما بين

سيناريوهات النزاع بين الدول الكبرى، فإن جميع هذه المخاطر تنجم عن **تهديدات** عدوانية لدودة، أكثر مما تنجم عن طرق غير مقصودة يساهم أطرافها، ومن ضمنها الولايات المتحدة والغرب، بطريقة غبية لإثارة المخاطر.

نعتقد أن جميع هذه المقاربات الأمريكية تجاه روسيا والصين في القرن الحادي والعشرين تعتبر خطيرة. ويكمن الخطر في الجمع القابل للاختراق لمفهومين في وقت واحد يجمع ما بين موسكو وبكين. الأول أن الولايات المتحدة سوف تتخلى عن التزاماتها الدولية إذا وجدت أي تغير. والثاني هو الشعور العميق بعقدة النقص في موسكو وبكين تجاه قوة أمريكا ـ بشقيها (كما وصف جوزف ناي) القوة «الصلبة» للتفوق العسكري الأمريكي على كافة المستويات. والقوة (اللينة) للهيمنة الاقتصادية الأمريكية والنفوذ الثقافي الأمريكي في جميع أرجاء العالم[105]. وهكذا فإن روسيا والصين تشعران بالغضب تجاه الولايات المتحدة وتخشيان في الوقت نفسه الطاقات الأمريكية.

ويبدو لنا أن ما جرى في الأوساط الحاكمة الرفيعة في كل من روسيا والصين هو فورة من **قومية** ما بعد الحرب الباردة الشوفينية، ذات طابع خاص، توجهها الولايات المتحدة بالدرجة الأولى. وقد صور ايشعيا برلين ذلك بصورة دقيقة في مقالة له، حيث قال: «القومية هي صفة مَرَضية من المقاومة لحماية الذات... إنها تشجّع على التمرُّد... لأنها تعبِّر عن رغبة متأججة تجاه عجز من نوع ما وسط ثقافات العالم»[106]. وفي الواقع فإن الزعماء الروس والصينيين، يبدو أنهم شعروا في بداية القرن الحادي والعشرين في علاقاتهم مع الولايات المتحدة أن الأمريكيين لا يعتبرونهم كما لو أنهم يحتلون ـ منطقياً ـ الدرجة ذاتها في السلَّم الدولي التي يحتلها الأمريكيون. وهكذا فقد رفض الأمريكيون، ومن المفترض أن يستمروا في الرفض، والسبب في ذلك على وجه الدقة هو أن إحساسهم بأنهم خُدعوا

يبدو لهم بأنه يُظهِر عدم الاعتبار الكافي من جانب الولايات المتحدة لهم، وكذلك من جانب الدول الكبرى الأخرى كثقافات وشعوب.

إنهم يشعرون أننا بطبيعتنا وعلاقتنا، نُهينهم في كل مرة. ونظراً للافتقار إلى الوعي بضرورة التفهم بين الدول الكبرى، فإننا نادراً ما نلاحظ أننا نهينهم. وحتى لو لاحظنا ذلك، فنحن نفتقر في كثير من الأحيان إلى القدرة على تخيل رؤية أن هذه الأشكال من ردود الفعل يمكن أن تؤدي على نحو غير مقصود إلى مجابهة، أو أزمة، أو حتى إلى نزاع عسكري.

وهكذا دخلت كل من روسيا والصين القرن الحادي والعشرين بشعور من عدم الثقة بالولايات المتحدة، والتشكك بأنها تسعى إلى هيمنة عالمية بحيث تخضع لها حتى الدول الكبرى (كما يعتبر الروس والصينيون). هل يستمر هذا الاتجاه؟ نحن نعتقد أن المختصين في الشؤون الخارجية الأمريكية في المستقبل سيكون لديهم سيناريوهات معقولة مترابطة تفيد أن الولايات المتحدة في النهاية وكل من روسيا أو الصين (أو كلتاهما) سوف تندفع إلى حافة حرب ما بين الدول الكبرى. حتى الآن، من السهل نسبياً أن نتخيَّل سباقاً خطراً للتسلُّح يلتحق به الروس والصينيون بحماسة شديدة. ومن السهل أيضاً أن نتخيل مجابهات مع الولايات المتحدة تعود جزئياً إلى حاجة الروس والصينيين إلى تحدي الأمريكيين، وإلى خلق أزمات إذا دعت الضرورة، باعتبارها وسيلة لحمل الأمريكيين على فهم أنه في الوقت الذي يمكن أن تكون فيه الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة في العالم، فإن القوى العظمى الأخرى الموجودة لا يمكن خداعها، ولا يمكن المساومة على مصالحها بدون عقاب.

«يجب أن نعكس مجرى التاريخ»

ثمة سؤال يُقزِّم جميع الأسئلة الأخرى المتعلقة بالحيلولة دون وقوع نزاع

بين الدول الكبرى في القرن الحادي والعشرين: هل نستطيع نحن في الولايات المتحدة والغرب أن نُخرج كلاً من روسيا والصين من العزلة؟ لقد فشلت جهود ودرو ويلسون البطولية لإخراج ألمانيا من العزلة بعد الحرب العالمية الأولى. هل ينتاب شبح ويلسون القرن الحادي والعشرين في هذا الصدد كما حدث في القرن العشرين مع حرب ومعاناة مُفجعتين؟ هذه مسألة ينبغي أن تتخذ موقع الصدارة في عقول جميع أولئك الذين يسعون بنشاط إلى الحيلولة دون أن يصبح القرن الحادي والعشرين تكراراً دموياً لسابقه.

أوضحنا أن علينا دوماً أن نفكّر ونعمل باطلاع، وبانسجام مع تحالف إقليمي أو دولي. وأن علينا أن نسعى إلى «نشر التفهم الواقعي» وأن نهيِّئ خيالنا «لتوقع نزاع غير متعمد». إذا كنا قادرين على «استيعاب» المفاهيم الراسخة لدى روسيا والصين، والتركيز على الطرائق والوسائل التي تجعل النزاع يبدو كنتائج غير مقصودة لأفعال تُتخذ الآن، يمكننا أن نُخفض إلى حد بعيد احتمال نشوب نزاع بين الدول الكبرى في القرن الحادي والعشرين.

ينبغي ألاَّ يكون لدينا اهتمام بالصعوبات التي تواجهنا. ودرجة هذه الصعوبة مبينة في القصة التالية عن تطوير تفكير فرد ما. في اجتماع دعت إليه «مؤسسة كارنيجي» سنة 1991 في نيويورك لمناقشة الاحتياجات الأمنية لفترة ما بعد الحرب الباردة، اقترح أحد المشاركين على المجتمعين برنامجاً مشابهاً إلى حد ما للبرنامج الذي نطرحه هنا. ولكن رئيس الاجتماع، السيناتور سام نان من ولاية جورجيا، أخمد أية مقترحات أخرى إضافية مشابهة بالقول: «حسناً، لديكم طبيعة إنسانية، وتيار التاريخ كله معاكس لكم. ماذا تريدون أن تحققوا لأنفسكم؟»[107]. كان ذلك سنة 1991. وفي صيف 1999 ترأس السيناتور نان (منذ اعتزاله منصبه الانتخابي) ثانية اجتماعاً للمختصين في شؤون الأمن الدولي، تحت رعاية «مجموعة أسبين الاستراتيجية» هذه المرة. في هذه

المناسبة ـ وبعد أن شهد تدهور الأوضاع في التسعينيات نحو تصاعد التوتر بين روسيا والصين من جهة، والولايات المتحدة والغرب من جهة أخرى ـ قال ببساطة: «لا بد أن نعكس مجرى التاريخ»[108].

كم يصعب ذلك؟ في تعبيرنا، هل يمكن أن تتجسد قوة الإبداع المتعددة الأطراف المطلوبة؟ أين يجد أولئك الذين ينتمون إلينا في الولايات المتحدة والغرب التفهم والاعتناق لاستيعاب الأفكار الراسخة للروس والصينيين، الذين كانت شعوبهم في القرن العشرين ضحايا رعب، وعنف ومآسٍ متكرِّرة؟ معظم الأمريكيين وكثيرون آخرون في الغرب لا يدرون شيئاً عن هذه الفظائع. إلى أي حد ستجعل هذه التجارب البعيدة تماماً (عنا) الروسَ والصينيين منغلقين تجاه جهودنا الرامية إلى اللقاء معهم على أرضية مشتركة من القيم الغربية الليبرالية؟ وهل سنقابلهم، أو ينبغي أن نقابلهم، على أية أرضية أخرى؟[109]؟ ومن سيراهن على أن الأمريكيين، المنفردين إلى درجة قصوى، سوف يُبدون رغبة في التعددية، أو التواضع لاعتبار أفعال الآخرين، إذا كانوا فرديين، يمكن أن نثير بواعث عدائية لنزاع غير متعمد بين الدول الكبرى في وقت لاحق من القرن الحادي والعشرين؟ تبدو هذه الخلافات عقبة كأداء في وجه نجاحنا. ومع هذا ينبغي أن ننجح.

رأى الرئيس جون ف. كينيدي، الذي واجه نوعاً خاصاً به من الرعب في أزمة الصواريخ الكوبية، العالم يتحول بطريقة يتعذر تغييرها ـ كحالة ما بعد الحرب الباردة ـ فيما بعد. هذا المحارب القديم، الذي كان راغباً، كما قال في خطاب تنصيبه إنه مستعد «لدفع أي ثمن» لقتال الشيوعية، قد ألقى خطبة مختلفة في 12 حزيران/ يونيو سنة 1963.

وإذا كنا لا نستطيع الآن أن نضع نهاية لخلافاتنا، فإننا نستطيع على الأقل أن نجعل العالم آمناً من الاختلاف. ففي التحليل النهائي بأن الرابط الأساس

المشترك بيننا هو أننا نعيش على هذا الكوكب الصغير. نتنفس جميعاً الهواء نفسه، ونرعى جميعاً مستقبل أولادنا، وأننا جميعاً ميتون[110].

هل نستطيع أن نحقق هذه الدرجة من التفهم مع الروس والصينيين بدون اندفاع نحو خطر نووي أو حرب مدمرة بين الدول الكبرى؟ هل نعمل معهم على تقليص خطر نزاع غير متعمد؟ وكما كتب مايكل ايغناتيف: «عندما تصل الأمور إلى تفاهم سياسي يظل الخلاف صغيراً دوماً، ويكون حسن الإدراك ممكناً دوماً»[111]. نعم ممكن. ولكن هل نقوم بالجهد اللازم؟ وهل نقوم بذلك في الوقت المناسب؟

obeikandl.com

ينبغي احترام الطموحات القومية؛ والشعوب يمكن أن تُحكَم الآن وفقاً لقناعاتها فحسب. إن «تقرير المصير» ليس مجرد كلمة تقال. إنه مبدأ يُلزم العمل به. السلام ينبغي أن يُشيَّد على أسس مُجرَّبة من الحرية السياسية.

ودرو ويلسون، 19 أيار/ مايو، 1919[1]

يتصف النظام الدولي لفترة ما بعد الحرب الباردة بوجود دول خطرة ومضطربة ومُخفقة وإجرامية. . التدخل العسكري مبرَّر أخلاقياً عندما تهدِّد الاضطراباتُ الداخلية الأمنَ الإقليمي أو الدولي، وعندما تقع انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان.

ستانلي هوفمان، 1998[2]

الإمبريالية الليبرالية قد تكون أفضل ما يمكن أن نتوصل إليه في هذه الأوقات العصيبة والحساسة. . . والبديلُ ليس التحرر أو انتصار بعض الإجماع العالمي للضمير، ولكن إعادة صياغة ألفاظ تشي غيفارا، وكوسوفو أخرى وثانية وثالثة وكثير منها.

ديفيد ريف، 1999[3]